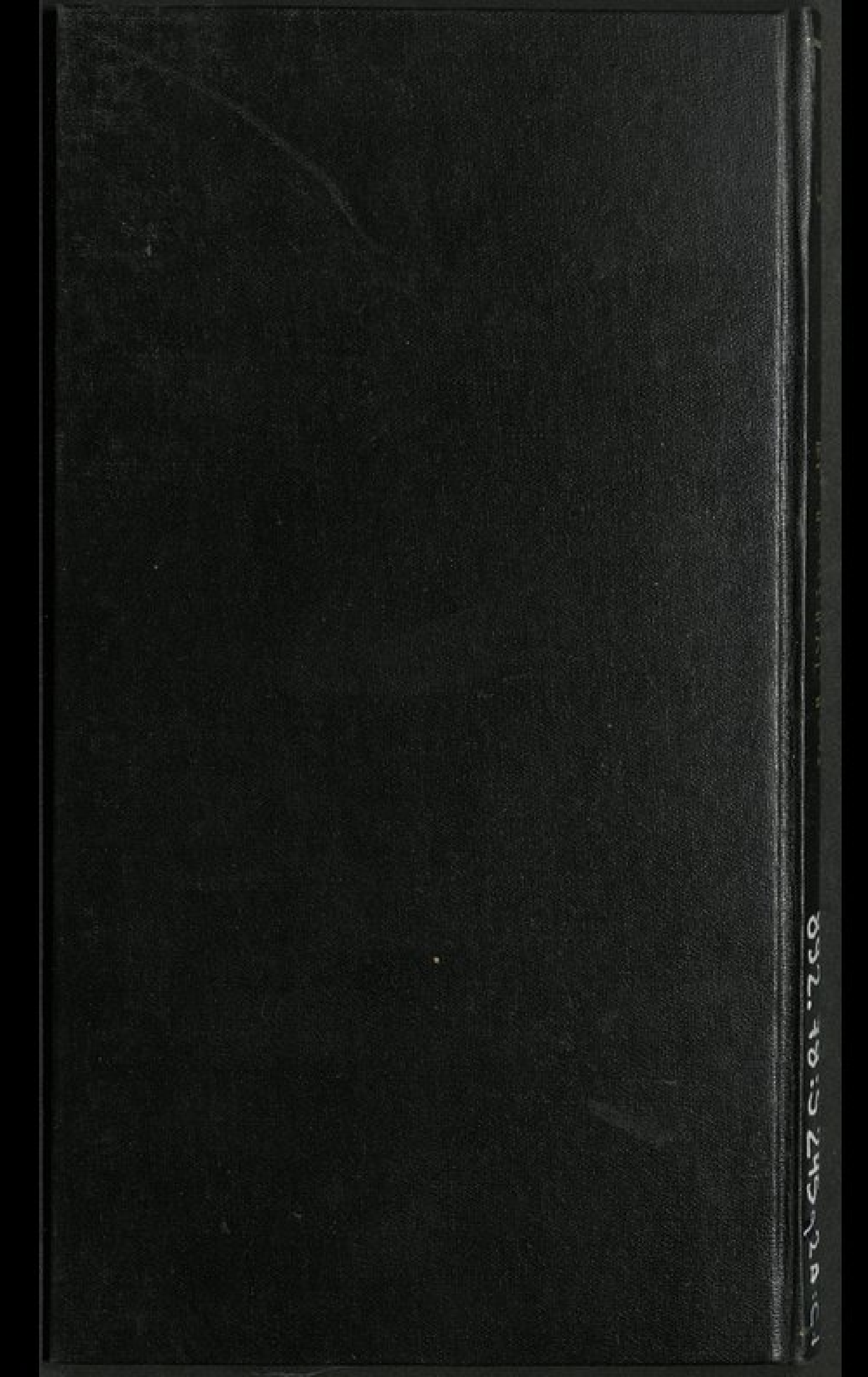
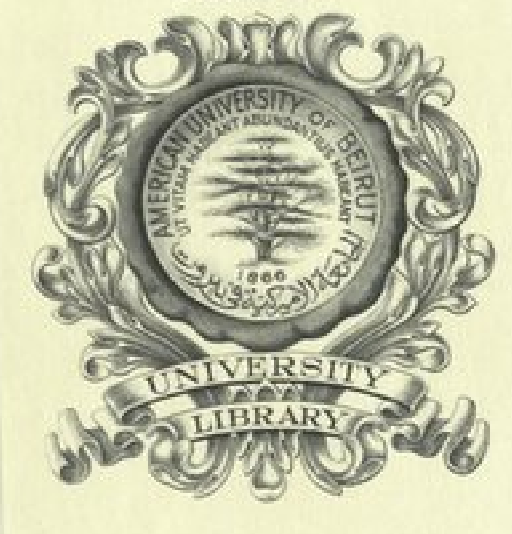
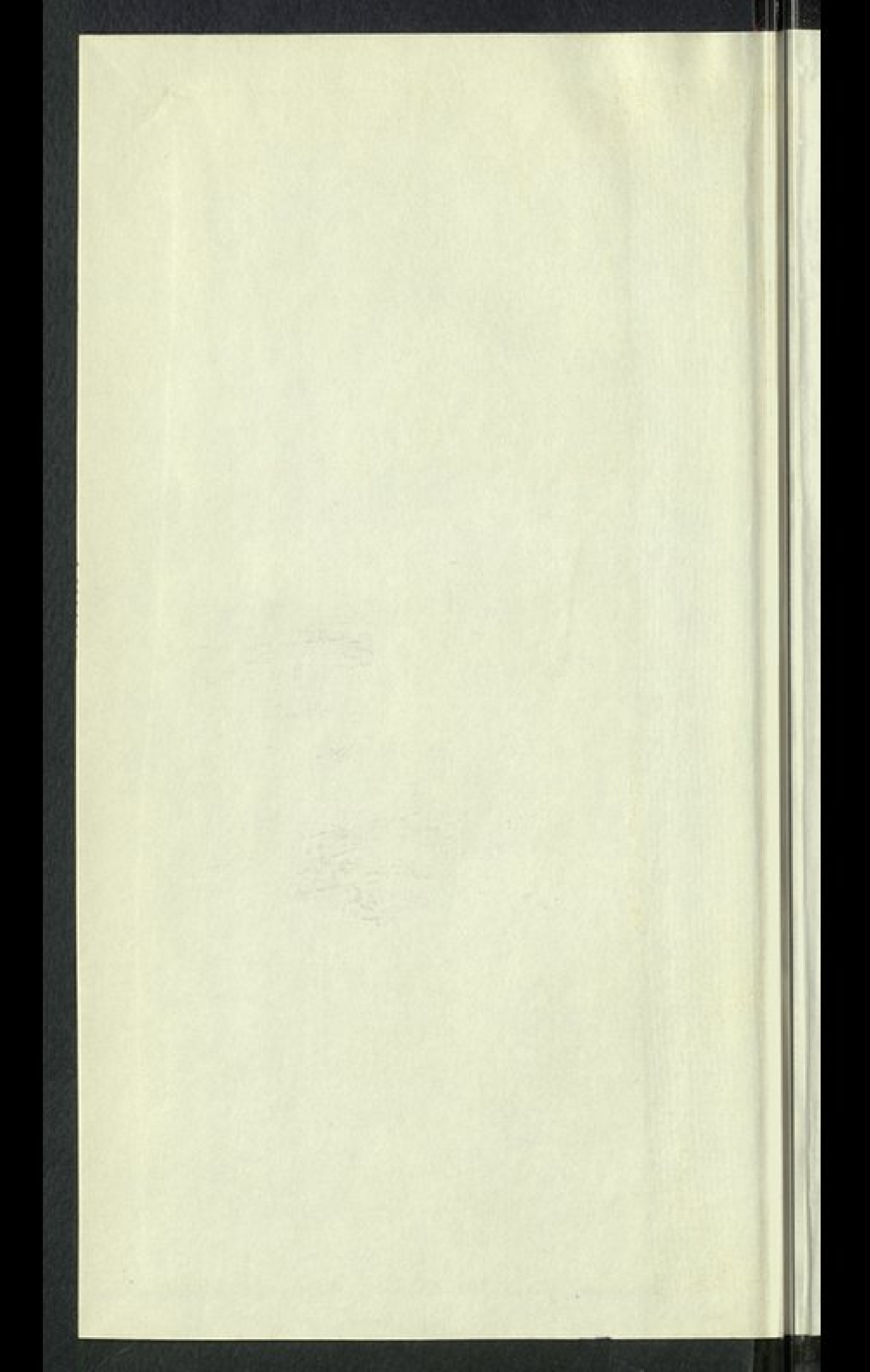
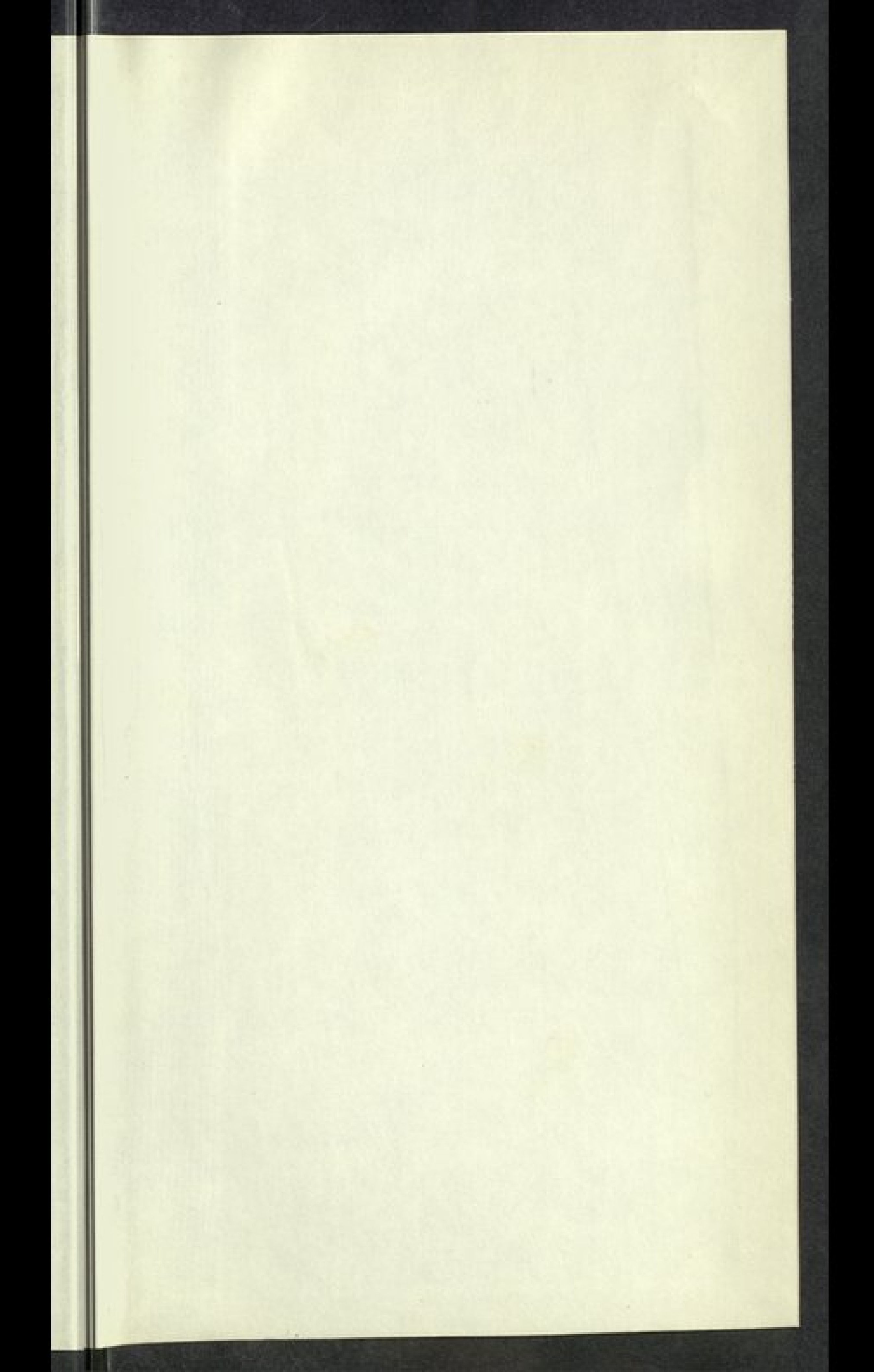
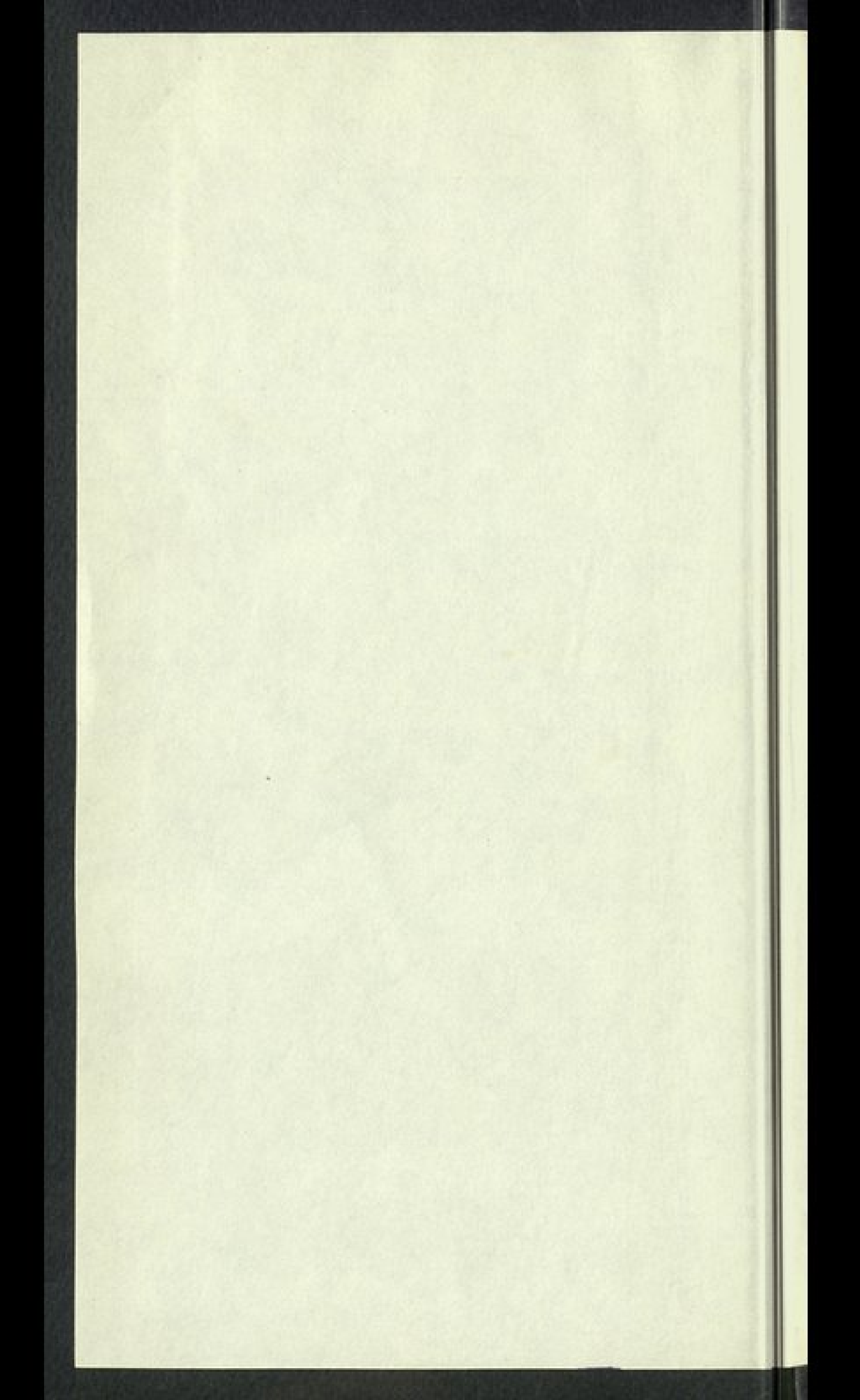
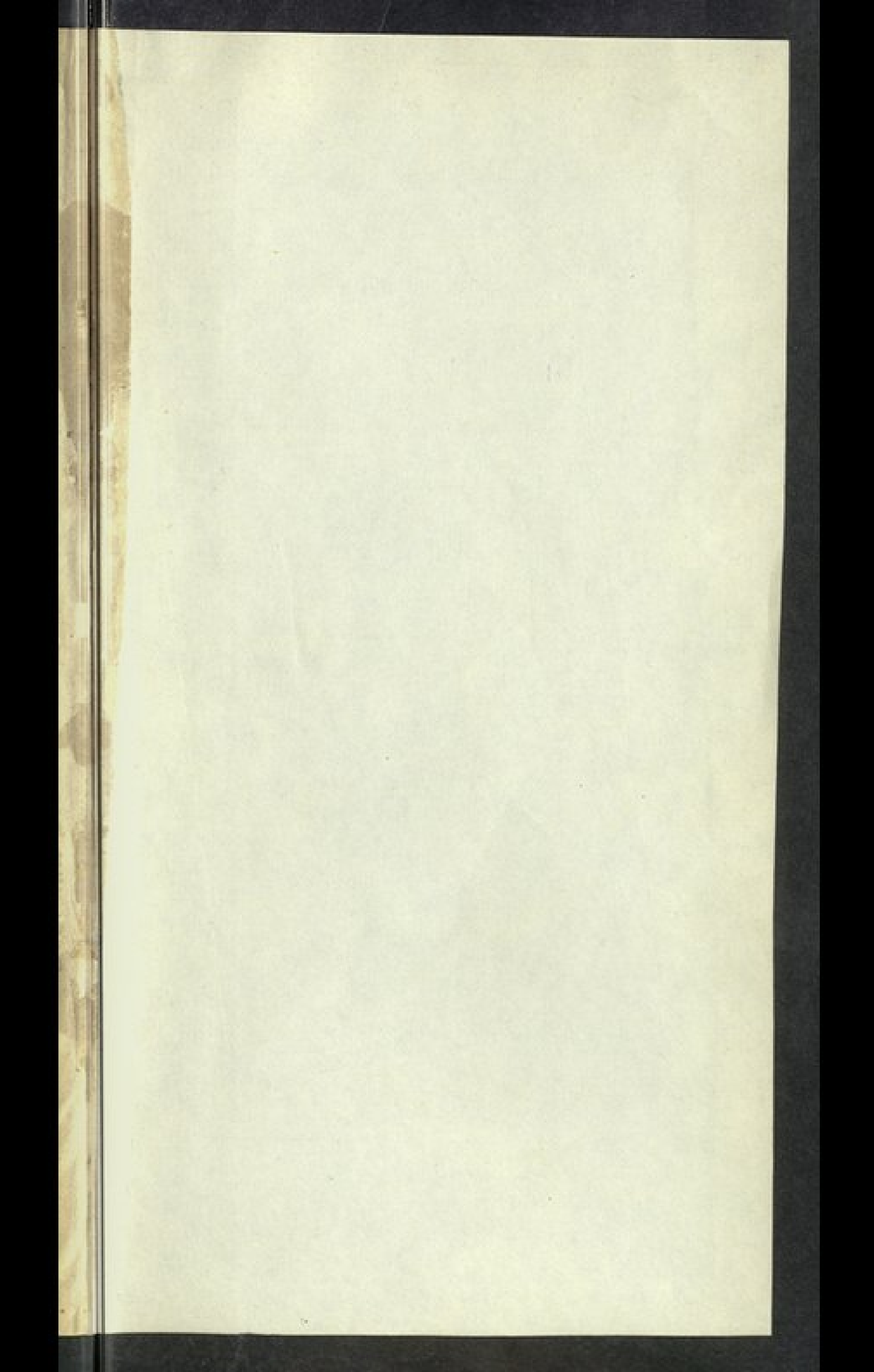



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY









القلوب المتحدة

في

الولايات المتحدة

بيان ما جرى للشيخ اسبيريدون جحا اللبناني والآنسة اليصابات فيلبس الاميركية من الاضطهاد والصعوبات قبل زواجهما من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٩٠٤

بقلم

سركيس

شكري سركيس

طبعة ثانية

طبع بمطبعة السلام بشارع كلوت بك بمصر

مقدمة

الطبعة الثانية

لما كنت في اميركا كتبت هذه الحكاية وطبعت منها نحو نصفها ثم عدت الى مصر فانجزت ادارة مرآة الغرب طبعها بعناية واتقان ولما انشأتُ في القاهرة (مجلة سركيس) نشرت هذه الحكاية تباعاً في اعدادها فصادفت الرضى العام والاستحسان ولذلك طبعتها طبعة ثانية على حدة في شكل كتاب

مصر　　اكتوبر　　١٩٠٥

المؤلف

مقدمة الطبعة الاولى

اذا كان جامع الحوادث في كتاب واحد ومرتبها على شكل موافق لحدوثها يدعى مؤلفاً فانا مؤلف هذا الكتاب والا فانا راوي حادثة جرت سمعتها نتفاً مختلفة فدونتها كما سمعتها ولا فضل لي الا فضل ترتيبها · وفي الحالين· حال التاليف او حال الرواية فانا اول من وضع في كتاب عربي حادثة حب واضطهاد حقيقية من اولها الى آخرها لا اخفي الاسماء والاماكن بل اصور الحوادث كما حدثت وازفها الى القراء لغايتين الاولى ان يطلع ابناء سوريا ولبنان على حادثة جرت في اميركا لاحد ابناء وطنهم لا تقل عن اعظم حوادث الروايات الافرنجية التي يعتني كتابنا بترجمتها وطبعها ونشرها على الناس وهم والقراء يعلمون انها وهمية لا اساس لها

والغاية الثانية ان اورد حقيقة حادثة اختلف الناس في رواية حوادثها فهم بين موافق ومعارض ومصدق ومكذب ويكون فيها دليل على ان الحب لا وطن له وان القلوب لا لغة لها فهي كالماء منعش على السواء في كل مكان · وكالهواء لا بد منه لحياة كل انسان · وقد كتبت حوادث هذه الرواية مدفوعاً الى تدوينها بغاية احسبها حسنة وساطبعها لمن شاقته قراءتها ولا اعرضها عرضاً بل انشرها نشراً والسلام

سليم سركيس

سويسفال في ضواحي بتسبرغ في ١٧ ايلول (ستمبر) سنة ١٩٠٤

البراهين على صحة ما ورد في هذه الحوادث

- ١ -

نيو يورك في ١٥ آب (اوغسطس) سنة ١٩٠٤

حضرة الماجد الشيخ اسبيريدون جحا المحترم

بعد السلام ابدي ان خبر الحوادث الكثيرة التي حدثت لكم قبل زواجكم اتصل بي وتحصته وسمعته مفصلاً . فكل الحوادث الغريبة والمدهشة التي لم اتصور حدوثها في عصر الحرية وبلادها حركت في عواطف الكاتب الذي متى رأى الحوادث اراد تصويرها صورة قلمية عبرة وذكرى كالشاعر يرى المشهد الجميل فيرسمه شعراً وعليه كتبت الحوادث المذكورة في قالب حكاية وارجو ان لا يكون قد فاتني شيء من حقائقها

(سليم سركيس)

-٢-

سو يسفال في ٢٥ آب (اوغسطس) سنة ١٩٠٤

حضرة الماجد سليم افندي سركيس المحترم

علمت من تحريركم ما عزمتم عليه من نشر كتاب (القلوب المتحدة في الولايات المتحدة) فارجو ان لا تتجاوزوا فيه الى شيء مما يستنكر في معالجة مثل هذه المواضيع . واذ كنتم قد رأيتم موافقة نشره فلا سبيل لي الا الشكر . على انني اتخذ هذه الفرصة لاقول ان السعادة العائلية التي منّ بها الله عليَّ كانت نتيجة المودة الصادقة التي شعرنا بها انا وامرأتي منذ الساعة الاولى التي تقابلنا فيها . واؤكد ان الزواج المختلط يؤدي الى السعادة متى اتفقت فيه اميال الفريقين على جعل المودة اساساً للمعيشة وارجو ان اقوم بكل واجب نحو زوجتي العزيزة واولادي الاعزاء جداً واقبلوا مزيد احترامي (اسبير يدون جحا)

-٣-

ترجمة

نيويورك في ١٥ آب (اوغسطس) سنة ١٩٠٤

حضرة السيدة اليصابات جحا المحترمة

في اثناء زيارتي القصيرة لسو يسفال التي تمتعت فيها بالطافك ادركت السعادة التي تشمل زواجك ولما كان يندر للانسان ان يتمتع بمشاهدة قران سعيد توفرت فيه اسباب الهناء واذ وقفت على العقبات الشديدة التي تعديتها لادراك سعادتكما التي تستحقانها رأيت ان اضع في كتاب تلك الحوادث التي هي مثال جميل لفوز الحب الصادق وارجو ان يصادف عملي رضاك وان تكوني راضية عن دليل اعجابي الفائق لزوجة شريفة وام فاضلة واتمنى لكما دوام سعادتكما الحاضرة الداعي (سليم سركيس)

- ٤ -

سويسفال في ٢٥ آب (اوغسطس) سنة ١٩٠٤

حضرة سليم افندي سركيس

نحن جميعنا نذكر زيارتكم بمزيد السرور وناسف انكم اضطررتم الى جعلها قصيرة على اننا نعلل النفس بامل تكرارها العاجل ولا حاجة الى بيان ترحابنا بكم . اشكر لكم كثيراً كلماتكم اللطيفة عن زواجي . فهو بالحقيقة سعيد واما المتاعب والاضطهادات التي احتملتها مع زوجي فلا انكر انها كانت كثيرة وكانت احياناً شديدة قاسية على ان ظلمات اشد سواداً كانت تستنير بشعاع شمس المحبة الصحيحة حتى لقد يتراآى لي ان التامل فيها كفران منذ شاء الله تعالى ان تؤدي الى خاتمة سعيدة . ان كل عناء يحتمل في سبيل احراز مثل سرورنا وفرحنا وصرنا نعلم ان الله يكتب كلمات الاستقامة على السطور المعوجة . والحق يقال انني كلما ذكرت زوجي واولادي الاعزاء اجثو شاكرة الله الذي منحني مثل هذه البركة واشعر ان كل من ادرك معنى الحب لا يستطيع الا تسبيح الخالق على هذه العاطفة الجميلة عاطفة المحبة — فانها توجد بواعث كل الاشياء وتؤدى فجأة الى ادراك وتقدير ما لم نكن من قبل ندرك معناه وغايته وتصير الاشياء العامة مجيدة مانحة اياها بهائها السماوي وبالاختصار فالمحبة هي السماء بذاتها

اعذرني ايها الصديق اذا اطلت في وصف سعادتي العظيمة فانني مثل الطير لا يملك الامتناع عن الانشاد والزقزقة . ومنذ كان زوجي عزيزاً جداً لدي فانا اكرم واعتبر كل ابناء وطنه وغايتي واملي ان ينشأ اولادنا الاعزاء في وطن ابيهم وهو امل ارجو تحقيقه عن قريب

الداعية (اليصابات جحا)

- ٥ -

رفائيل أسقف بروكلن

ورئيس الرسالة الروحية السورية الارثوذكسية في اميركا الشمالية

٣٢٠ شارع باسيفيك - بروكلن نيويورك

في ١٣ — ٢٦ شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٤

مجلد سنة ١٨٩٨ — شهادة معمودية — نمرو ٥

في اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٨٩٨ حساباً شرقياً قد تمت عمادة اليصابات ابنة روبرت فيلبس الاميركية المولودة في مدينة بتسبرغ بنسلفانيا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية في خامس شهر ايار سنة ١٨٧٠ بموجب طقس الكنيسة القويمة الراي الارثوذكسية في مدينة نيويورك العظمى على يد رئيس الرسالة الروحية السورية الارثوذكسية في اميركا الشمالية الارشمندريت رفائيل هواويني . وذلك بموجب طلب المعتمدة نفسها واعترافها العلني بانها لا تعرف ذاتها اذا كانت معتمدة او لا سابقاً . وقد كان عراباً لها نقولا عبدالله من اميون الكورة في لبنان وعرابة لها مريم امرأة سليم هواويني من دمشق بحضور عريسها الشيخ اسبير يدون جحا من بشمزين الكورة في لبنان . وللبيان اعطيت هذه الشهادة ممضاة بامضائنا ومختومة بختمنا وختم الكنيسة

رفائيل

(محل ختم الكنيسة)

اسقف بروكلن

— ٦ —

رفائيل اسقف بروكلن

ورئيس الرسالة الروحية السورية الارثوذكسية في اميركا الشمالية

٣٢٠ شارع باسيفيك - بروكلين نيويورك

في ١٣ - ٢٦ شهر ايلول سنة ١٩٠٤

مجلد سنة ١٨٩٨ — شهادة اكليل - نمرو ٧

في اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٨٩٨ حساباً شرقياً قد تم اكليل اليصابات ابنة روبرت فيلبس الاميركية الجنس والابيوسكوبالية المذهب المتحدة بالكنيسة الارثوذكسية والبالغة الثامنة وعشرين من العمر والعذراء على الشيخ اسبير بدون ابن الشيخ حنا نعمه جحا السوري من بشمزين الكورة في لبنان الارثوذكسي المذهب والبالغ السنة الثلاثين من العمر والاعزب . وذلك في مدينة نيويورك العظمى على يد رئيس الرسالة الروحية السورية الارثوذكسية في اميركا الشمالية الارشمندريت رفائيل هواويني . والاشابين كانوا نقولا عبدالله من اميون الكورة في لبنان ومريم امرأة سليم هواويني من دمشق . وللبيان اعطيت هذه الشهادة ممضاة بامضائنا ومختومة بختمنا وختم الكنيسة

رفائيل
اسقف بروكلن

(محل ختم الكنيسة)

القلوب المتحدة

في

الولايات المتحدة

بقلم «سليم سركيس»

مقدمة اولى

في سويسفال من ضواحي مدينة بتسبرغ من ولاية بنسلفانيا من الولايات المتحدة الاميركية منزل فخيم حسن الترتيب فاخر الرياش قائم في بقعة من الارض واسعة خضراء ينطلق النظر منه الى مسافة بعيدة من جميع جهاته . يقيم فيه الشيخ اسبيريدون جحا وقرينته اليصابات كريمة المرحوم روبرت فيلبس من اغنياء بتسبرغ وكبار كرامها . ولهما عائلة مؤلفة من ثلاثة غلمان اولهم فريد جون جحا في السادسة من عمره وثانيهم هنري اسبيريدون جحا في الثالثة وثالثهم ريتشارد جورج جحا في اوائل طفوليته وكل حركات هؤلاء الاولاد وسلوكهم منطبق على التربية المعروفة في الطبقة المهذبة من هذه الامة الاميركية العظيمة . والشيخ اسبيريدون جحا رب هذه العائلة له من العمر الان ٣٦ سنة . ولد في بشمزين وهي بلدة لبنانية تحيط بها بلاد واسعة ذات خصب فاميون و بطران وكفر حريز وغيرها وهي في قائمقامية قضاء الكورة وكانت مدة مركزاً للقضاء تبعد عن البحر نحو ستة اميال كائنة في بقعة منبسطة من الارض بجانبها واد يجري فيه نهر ومن حولها معامل الحرير الكثيرة في ذلك الجبل والتي قد تكون مورد الرزق الاولي لسكانه

وآل جحا الذين منهم اسبيريدون جحا كانوا اصلاً في جرد لبنان ثم تفرقوا في طلب الرزق فاصاب بعضهم زحلة ونزل البعض الاخر في بشمزين ولا تزال الصلة بين فرعي العائلة . وكان نعمة جحا جد موضوع الكتاب رفيع المكانة بين قومه وله ارزاق وادب فلما مات خلفه ابنه حنا جحا وكان

معروفاً بامانته لدى حكومة لبنان وله اولاد كبيرهم ميخائيل وهو محام معروف بسعة خبرته وامانته في الكورة ولديه مصرف يضع الناس هناك فيه اموالهم اعتماداً على امانة الرجل وخبرته وقد قضى ميخائيل ٢٢ سنة في منصب مدعي عمومي محكمة الكورة واشتهر في انه كان يأخذ الوظائف عن اهلية استحقاق

وابنه الثاني قسطنطين وهو واسع الخبرة بالتجارة وقد عهد اليه محل سنجر الاميركي بوكالة الات الخياطة

و يليه نعمه وجبرائيل . اما جبرائيل فانه رافق اسبيرون في الهجرة الى اميركا و بعد ان قضى مدة في ولاية بنسلفانيا مع اخيه اسبيريدون سافر الى ارض الذهب في الاسكا واقام عدة سنوات في دوسن سني

والابن الاصغر هو اسبيريدون موضوع هذه القصة كان في صغره موفقاً الى الخير شديد العناية بكل عمل يتولاه مهما كان صغيراً وكانت له عناية فائقة بالخيل حتى اشتهر امر مهرة كانت لهم انها الفته كثيراً حتى كانت تتبعه وتنقاد اليه كانها حيوان داجن

واوّل ماتلقى الدروس في مدارس بشمزين الابتدائية فكان ينتقل من مدرسة الى اخرى والحقيقة ان المدارس كانت تنشا ثم تزول فيليها غيرها شان المدارس الصغيرة في ذلك العهد الى ان ارسله والده الى كفتين

ثم ان اسبيريدون توفق الى معلم ذكي عاقل هو توفيق سلوم احد طلبة الكلية السورية الاميركية فرأى هذا المعلم الذكي ميلاً من الشاب الى التقدم اذا اراد ان يهتم بدراسة اللغة الانكليزية التي مال اليها من صغره فاتفق مع المعلم العاقل على دراستها عن يده في اوقات معلومة ولكن معلم المدرسة الجاهل ساءه انصراف الشاب الى هذا الغرض واراد معاقبته وكان هذا باعثاً على تركه المدرسة نهائياً وكان شقيقه جبرائيل قد اراد المهاجرة الى اميركا قبل هذه الحادثة بنصف سنة فعارضه اسبيريدون واقنعه بالعدول فلما كان ما كان من خلافه مع المعلم كره البقاء واتفق مع اخيه على السفر وهكذا ذهبا الى طرابلس وركبا الباخرة الى اميركا فوصلا نيو يورك واقاما مدة فيها ثم قصدا بتسبرغ كأن يد القدر ساقتهما الى المدينة التي تقرر في سابق علم ان تكون وطناً لاسبيريدون ومحلاً لعذابه الطويل الذي ادى الى راحة اطول وهناء اعظم يتمتع بهما الان

واقام اسبيريدون في بتسبرغ ملازماً البيع كما هي عادة كل سوري ياتي تلك البلاد ثم مرض مرضاً شديد ولكنه شفي بالعناية التي قدرت له حياة طويلة ولزمه شقيقه جبرائيل عدة سنوات ثم رحل الى دوسون حيث الذهب الكثير للعمل والاجتهاد

مقدمة ثانية

ولدت اليصابات من والدين كريمين في مدينة بتسبرغ فوالدها روبرت برون فيلبس Robert B. Phillips من اصل انكليزي عريق في الشرف والمكانة ووالدتها فيوب لوجاي Phebe Lougeay من عائلة كريمة فرنساوية الاصل واشتهرت هذه المرأة بين معارفها في البقة العليا من الهيئة الاجتماعية بالرقة والفضل والادب ولها شهرة بعمل الخير والاحسان لكنها كانت تكتم مبراتها. وردفي جريدة بتسبرغ تيمس في وصف هذه العائلة « ان عائلة فيلبس من علية اعيان بتسبرغ والمرحوم وليم فيلبس الاكبركان عدة سنوات رئيساً لشركة سكة حديد اليكاني فالي مات تخلفاً الاملاك الكثيرة واكثر املاك هذه العائلة مؤلفة من عقارات في ناحية ٢٢ ومنذ ذلك الحين قد ارتفعت اسعارها كثيراً حتى صار اصحابها الان من اوسع الناس ثروة بين العائلات الغنية المقيمة في ناحية سكويرل هل»

اما والدها روبرت فانكليزي الاصل كان والده الابن الاكبر لوالده الذي كان من اشراف الانكليز فاراد جدها ان يتزوج من فتاة يهواها وكره قومه ان تكون زوجته ولكنه تزوجها بدون رضاهم وهكذا جلب غضب والده عليه فحرمه من ارثه ورضاه ولما رأى ما آلت اليه احواله كره الاقامة في وطنه فهجره الى اميركا مع المرأة التي اختارها وكان كاهناً لطائفة الايبسكوبال فادى بها الرحيل الى بتسبرغ وجعلاها مركزهما

وبعد وصوله الى اميركا بسبعة شهور سقطت عليه شجرة فقتلته وكان قد ولد له ابنه روبرت والد اليصابات واضطرت والدته الى اعالة العائلة بعمل يديها وكرهت الالتجاء الى عائلة زوجها الغنيه في انكلترا . ثم ان روبرت دخل في خدمة معمل الدخان وبعد ان اقام برهة تركه واستخدم في معمل زجاج من معامل المدينة المشهورة وهو معمل « بست وشركاه »

وكان روبرت يعمل في هـذا المعمل مع شقيقه وليم ولبثا على ممارسة الاعمال في معمل الزجاج هذا حتى اتقنا كل فروعه واشغاله وظهرت امانتهما واجتهادهما ظهوراً واضحاً وصارا موضع ثقة المستر بست ومودته فبعد مضي سنوات دعاهما المستر بست اليه وقال لهما «قد عزمت على التنحي عن الاشغال فان ثروتي عظيمة وصحتي لا تحتمل زيادة العناء ولما كنت قد رايت منكما اجتهاداً عظيماً ودراية فائقة فانني اعطيكما المعمل لتوليان ادارته على مسئوليتكما وبموجب درايتكما» وهكذا صار روبرت ووليم فيلبس صاحبا المعمل الزجاجي بعد ان تعهد المستر بست ان يدفعا له قيمة معلومة من الداخل في اقساط ولم تمض مدة حتى توفرت لهما اسباب النجاح والتقدم فدفعا المال واستقلا بادارة المعمل وملكه وصارت لهما ثروة مهمة ثم انهما اخذا حصة في معمل حديد فدرت عليهما الارباح بغزارة

فلما صار روبرت في كهولته اثر عليه العمل المتواصل لانه كان حتى في ايام ثروته منعكفاً على مزج الزجاج بدراية ممتازة ونصح له الاطباء الانقطاع عن العمل او يموت في شهور قليلة فتنحى عن العمل واذ ذاك بنى منزله الجميل على اكمة كثيرة الاشجار تشرف على المدينة وذلك بعد زواجه بمدة ثم توفي سنة ١٨٨٨ وتوفيت زوجته على الاثر مخلفاً ثروة طائلة وعائلة مؤلفة من . وليم المتوفي

جامس وهو الذي سيرد اسمه كثيراً في الحوادث الاتية وهو رجل لم يمارس عملاً في حياته بل هو يعيش في نعمة ورخاء من دخل املاكه وامواله . شارل المتوفي وكان من المحامين المشاهير . روبرت وهو من مأموري حكومة بتسبرغ . جون وهو طبيب في فيلادلفيا . اليصابات وهي الابنة الوحيدة الصغرى والتي هي موضوع هذه الحوادث

وبما انني سابدأ فيما يلي بسرد وقائع الحادثة اقول ان عائلة فيلبس اذ ذاك كانت تقيم في منزلها الخاص على الاكمة وكانت اليصابات تعتني بالمنزل وادارته واخواتها قائمة مقام ام لهم ولديهم ٣ خادمات ومربية عدا عن الخدم ولديهم خيول وعربات

قالت جريدة بتسبرغ تيمس عن الانسة اليصابات ما ترجمته «يقال ان ثروة الانسة اليصابات فيلبس الخصوصية تبلغ مائة الف ريال

وهي بالغة من الرشد ولها قدر عظيم من الاملاك بما فيه اسهم وضمانات اخرى واملاك كائنة في مقاطعات متعددة في هذه الولاية (بنسلفانيا) وفي الغرب ولها عقارات ثمينة في النواحي المجاورة تحتوي على نحو الف فدان ولها صندوق خاص في خزائن شركة سيف ديبوزيت وشركة الاحتكار . ولها اشتراك مالي في رهنية املاك سنترال هوتل وشركة مياه مونانكاهيلا وشركة الاملاك الارضية و بنك الاقتصاد الاهلي وشركة دوكين كما ان لها اسهم في عدة شركات للبناء والدين»

الفصل الاول

اسبيريدون جحا في اميركا · تجارته · حالة البيع هذه الايام بالنسبة الى الايام الماضية

سنة ١٨٨٩ وصل اسبيريدون جحا واخوه جبرائيل الى نيويورك في جملة العدد الغفير من السوريين المهاجرين وهو لا يعلم ما خبأه له القضاء من العناء المودي الى الراحة · والشقاء الذي مصيره الهناء · ومارس مع اخيه العمل الوحيد الذي انصرف اليه جميع المهاجرين في تلك الايام وهو البيع لكنه بدأ من نصف الطريق اي بدأ ببيع الحرير وكان الشرقي منه كثير الرواج يومئذ وكل تحفة سورية مرغوب فيها عند الاميركان اولا لقلة ورود تلك الاصناف ثم لقلة عدد الباعة

والبيع في تلك الايام كان يختلف كثيراً عنه في هذه الايام فقد عرف الاميركان الان هذه البضائع واسعارها واجناسها وعرفها ايضاً كبار تجارهم فاحتكروها حتى سدّوا ابواب الرزق في وجه السوريين لانهم اكثر مقدرة منهم على مشتراها من مصدرها بكميات كبيرة و بالتالي باسعار ارخص ومن جهة اخرى فان عدد باعة هذه الاصناف من السوريين قد صار كثيراً جداً حتى زاد على الحاجة فوضعت قوانين الرخصة التي تزيد على ٥٠ ريالاً في بعض المدن · والذين يقرأون هذا الكتاب من المهاجرين يعلمون الفرق العظيم بين بيع هذه الايام وبيع الايام الاولى اذ كان البائع

مقبولاً في كل منزل يرحب به الاميركان وكان البيع قاصراً على العائلات الغنية لان بضائع البائع السوري في ذلك الحين لم تكن من الضروريات التي يحتاج اليها كل الناس بل كانت من الكماليات التي لا يستطيع مشتراها سوى الاغنياء

وقضى اسبير بدون مدة في نيويورك وفلادلفيا ثم اتى الى بتسبرغ ولما رأى الاتعاب الملازمة للاشغال عزم على الرجوع لكن الاقدار حالت دون ذلك فمرض مرضاً شديداً الزمه الفراش نحو نصف سنة فلما شفي مارس بيع الحرير ولوازم العائلات مما خف حمله وثقل ثمنه . ولكي تعلم حالته اذ ذاك ومنزلته بين الاميركان انقل ما ورد عنه في جريدة بتسبرغ تيمس وهذا ترجمته

(ان اسبير بدون جحا سوري ما برح في السنوات الخمس الاخيرة يعمل عملاً جيداً في المدينتين حيث كان يبيع افضل الحرير والسجاد والملابس وسائر الاصناف الشرقية بين الاشراف والاغنياء)

وكان في عداد الذين عرفهم من الاميركان رجل من مشاهير الاغنياء واصحاب المقامات اسمه هنري جونز وهو صاحب معمل حديدي مشهور واسع الثروة رفيع المقام وله علاقة خطيرة باهم حوادث هذه الحكاية

وفي جوار بتسبرغ بلدة صغيرة اسمها هومستيد اقام فيها مدة ثم رأى ذات يوم منزلاً جميلاً قام على اكمة عالية احاطت به الغابات والاشجار وعليه كل دلائل الثروة والجاه فاراد الدخول اليه شأن البائع المجتهد يطلب منازل الوجهاء والاغنياء وسأل عن سكانه فقيل له هؤلاء هم عائلة فيلبس ذات الجاه والثروة واذا زرتهم اشتروا كل ما لديك من البضائع

فسار ذات يوم على بركات الله حتى وصل الى سفح الاكمة فعثر على منزلين منفردين زارهما واشترى سكانهما منه ثم سأل سيدة في احد المنزلين عن سكان المنزل المرتفع فاكثرت من الاطراء عليهم وقالت ان عائلة فيلبس غنية فسألها ان تكتب اسم العائلة على بطاقتها متخذاً ذلك وسيلة الى التوصل للعائلة المذكورة وسار صاعداً في الطريق المرتفعة المحيطة بالاكمة حتى وصل الى الحديقة . وكان النهار شديد الحر وقد تعب اسبير بدون من المسير ومع ذلك فحالما صار في دايرة ذلك المنزل شعر ان اثقال همومه

واتعابه قد زالت عنه كأن عين ضميره نظرت الى المستقبل. ورأى في الحديقة رجلاً يدير عدة رجال يتولون جمع الفاكهة من الاشجار فدنا منه وحياه فرد التحية بلطف ورقة ثم اخبره اسبير يدون انه بائع ولديه بضائع حسنة جديدة فرحب الرجل به كثيراً وادخله الى المنزل وامر الخادمة ان تقدم له كأس شراب تبرداً لغليله والح عليه ان يتناول الطعام معهم فابى اسبير يدون تأدباً ولكنه فتح جزدانه وعرض بضاعته التي كانت نسائية على الغالب

وهذا ما قالته جريدة بتسبرغ تيمس في وصفه ومنزلته

« كان شاباً جميلاً في نحو الثلاثين من عمره يحسن التكلم باللغة الانكليزية وكان محبوباً بين طبقة الاعيان الخاصة التي كان يتعاطى اشغاله معها »

الفصل الثاني

اجتماع اسبيريدون والصابات لاول مرة

كان الرجل الذي استقبل اسبير يدون في منزله ورحب به كثيراً يسمى جامس فيلبس ويعرفه القاري من مراجعة وصف اولاد روبرت فيلبس وهو اهم الذين يمثلون ادوار هذه الرواية ولو علم ما سيكون له مع ضيفه في المستقبل لفتك به في تلك الزيارة الاولى ولكن الاقدار مخبوءة في ذيل الكتمان والمستقبل لله

وفتح اسبير يدون جزدانه وبدأ يعرض بضاعته على جامس وابنة اخيه ايفا وهي في الخامسة عشرة من عمرها ولها ميل الى الهزل واللعب ولها جمال بارع فكانت تجول حول البضائع وتعجب بها بلهفة اعجاب البنات ومع جمالها الفتان وصباها لم تؤثر على اسبير يدون اقل تأثير فكان ينظر اليها نظرة بائع الى ابنة يرجوان تؤثر عليها بضاعته ليربح من ميلها ثم ان جامس نظر الى احدى الخادمات وقال — اذهبي باحنة وقولي للاصابات ان تأتي الى هنا لترى البضائع النفيسة

وبعد قليل عادت الخادمة تقول

– ان سيدتي مشغولة

قال جامس

– قولي لها ان بائعاً شرقياً يحمل اصناف البضائع الجميلة التي تميل اليها

قالت الخادمة قد وصفت لها البضائع فلم يرق لها ذلك

وكانت ايفا قد دهشت لمرأى تلك البضائع فخرجت الى اليصابات وسألتها الحضور فابت ولكن الفتاة اصرّت وهكذا بطريقة الهزل جرّت اليصابات جرًّا بين الضحك واللعب واخذتها من بين اشغالها اليدوية اذ كانت لاهية مع الخادمات في استحضار بعض الحلويات وادخلتها كما هي بدون ترتيب ولا استعداد الى القاعة . وكانت اليصابات في ثوب بسيط الزي ازرق اللون وشعرها غير مرتب وقد تجرد زنداها اهتماماً بالعمل . فدخلت القاعة دخول المكره يتنازعها عاملان بين ان تغضب لاصرار ايفا واكراهها على المجيء و بين ان تضحك لضحك الفتاة

وما لبث اسبير بدون ان رآها داخلة على ما وصفنا فلما وقعت العين على العين دقت القلوب وتبادلا نظرات الرضى القلبية فرأت الفتاة في هذا الشرقي رجلاً صبوح الوجه طلق المحيا كثير الرزانة عليه مظاهر الترتيب والرقة فاستوقف نظرها كما استمال خاطرها وما لبثت ان نظرت اليه كزائر لا كبائع لانه احسن التصرف في سلوكه وحديثه وعرض بضاعته فلم يكن جسوراً وقحاً بل كان عارضاً لا يصرّ على انفاق سلعه

وحري بالذكر ان اليصابات لم تكن حتى هذا النهار قد صبت الى رجل آخر فانها بعد وفاة والدتها انصرفت الى الاهتمام براحة اخوتها ومع كثرة زائري منزلهم ووفرة ثروتها واقبال الشبان على استمالتها لم تجد فيها ميلاً الى شيء من ذلك فلما رأت الشاب السوري كان الحب من اول نظرة وصادف هواه قلباً خالياً

ورأى اسبير بدون الفتاة داخلة على ما وصفنا من الفرق بين مظهرها ومظهر ايفا فشعر للحال بميل اليها كانما استماله منها دون ايفا سلوكها ورزانتها وعدم التكلف والبساطة الظاهرة في فتاة لها ذلك المقام وتلك الثروة ومع ذلك فهي تكرس ساعات يومها للاعمال اليدوية شان البنات ذوات التربية الحسنة

ثم ان اليصابات نظرت البضائع وسرت بها كثيراً حتى كرهت ان يرحل البائع واكثرت من تقليب الامتعة

فقد كان اهتمامها الحقيقي بالرجل لا ببضاعته ولكن الحيلة في الحب جائزة ثم اشترت منه قطعة حريرية هي غطاء طاولة ولا يزال ذلك الغطاء الذي استعمل ستاراً لمظهر الحب المتبادل محفوظاً في بيت الزوجين الى الان . اما اسبيريدون فانه شكر لها مكارمها واراد الانصراف فخشيت الفتاة ان يكون هذا آخر عهدها به وارادت ان تراه ثانية ومنعها الادب والتربية عن التصريح فعمدت ثانية الى الحيلة وقالت

— قد احببت جنس بضاعتك فارجوك ان تعود الينا مرة ثانية بما يجد لديك منها

ثم خافت ان لا يكون هذا ضمانة كافية لرجوعه فقالت

— لكن الاوفق ان تترك عنوانك عندنا حتى اذا احتجنا الى شيء مما لديك دعوناك

قال اسبيريدون

— ان حسن معاملتكم لي يحملني على الشكر الوافر وسوف اعود حالما تحضر بضاعتي الجديدة

وانصرف اسبيريدون في سبيله فلم يذكر المال الذي قبضه من اليصابات وانما ذكر اليد التي دفعت والعين التي نظرت والفتاة التي خاطبته نظرها خطاباً غير مفهوم الا لدى المتماثلين في الاميال

مشى اسبيريدون من ذلك المنزل سائراً في نصف دائرة من الطريق نزولاً الى الوادي ورجوعاً الى محله واخذت الخواطر تزدحم في ذاكرته وخطر له شأن كل شاب خواطر كثيرة كانت تزعجه.

قال في نفسه انا بائع حرير وهذه الفتاة ذات مقام وثروة كما بلغني من كثيرين وكما ظهر من مظهر معيشتها وهي محاطة بكل اسباب النعيم فكيف يخطر لي ان اطمح بامالي اليها — انها احلام . ولكن

نظرها كان نظر استمالة وحديثها حديث انعطاف واصرارها على رجوعي اصرار رضى . اذًا سارجع واراها

وشعر من ذلك الحين براحة في حضورها وسرور من مقابلتها

ولم يشعر جامس وايفا بشيء مما دار بين عيني اسبيريدون والبصابات ولكن حنة رأت وادركت ان تلك المقابلة اشعلت نارًا في قلبيهما ذلك شأن الخادمات لهنَّ انصراف الى الاهتمام بما ليس من شأنهنَّ ولكنها لم تكن على ثقة من صحة ما تراءى لها فكتمت امرها واقامت تنظر وهي في التفكير والله في التدبير

وحنة هذه والخادمة الاخرى دينا لهما دور مهم في القصة بدليل ما ورد عنهما في جريدة بتسبرغ تيمس . قالت عند ذكر الدسيسة ضد اسبير يدون ما ترجمته

« ان دينا كوهلر الخادمة في عائلة فيلبس وجاكوب كوبلسكي وحنة امرأته اتهموا ايضًا بالاشتراك في الدسيسة »

الفصل الثالث

كل شيء يبدأ صغيرًا ثم يكبر الا المصيبة تبدأ كبيرة ثم تصغر . ابتداء الحب واساسه

مضى على الحادثة السابقة ثلاثة شهور قضاها اسبير يدون تارة بالبيع وتارة بالتجارة متنقلاً من مكان الى اخر ولكنه لم يخرج من جوار بتسبرغ وكان يود ان يزور بيت فيلبس ولكن الحشمة تمنعه وهو يخشى ان يكون ثقيلاً بكثرة تردده . ثم راى ان مدة ٣ شهور كافية لمنع الظنون فذهب الى المنزل وهو يقدم رجلاً ويؤخر اخرى ولا يعرف كيف يكون استقبالها له . فتصور سروره ودهشته اذا اسرعت البصابات هذه المرة الى مقابلته واكثرت من ملاطفته حتى سرّي عنه كل خوف وخشية وراى انها مرتاحة الى محادثته واشترت شيئًا من بضاعته

وواصل الزيارات بعد هذا واخذ يستعمل الحيلة واسطة للزيارات فكان

من حين الى آخر يحضر بضائع جديدة لا حاجة اليها ولكنه كان يجعلها سبباً للزيارة . وكانت هي ايضاً تستعمل الحيلة لتكرار مقابلته فكلما اشترت منه بمائة ريال تدفع له قسماً منها وتسأله الرجوع لاستيفاء القيمة بدعوى انها غير متوفرة لديها ساعتئذٍ

وما لبث اسبير بدون ان شعر ان الابنة ميالة اليه ميلاً خصوصياً فلما صار على ثقة من ذلك وكان قد مضى على تعارفهما نحو ٣ سنوات عمد ذات يوم الى تعزيز علاقته معها فاخذ نسخة من الانجيل وارسلها اليها مع البريد واردف الهدية بالتحرير الآتي تعريبه

حضرة الانسة فيلبس

من مميزات الشرقي كما تعلمين من دروسك ومطالعتكِ انه كثير الشعور بالاكرام كثير الحرص على مقابلته بالشكر ولما رايتُ في مقابلاتي المتعددة انكِ تميلين الى المصنوعات الشرقية تجاسرت على اهدائكِ اعظم مؤلف شرقي وضع في الشرق مهبط الوحي الالهي وهو الكتاب المقدس بلغتي العربية فمع علمي انك تجهلين هذه اللغة لا اجهل انك تعلمين محتويات هديتي وبالتالي تعلمين مقدار اكرامي واحترامي (اسبير بدون جحا)

وكتب على الانجيل ماياتي

بتسبرغ في ١٩ مايو (ايار) سنة ١٨٩٣

اهدي هذا الكتاب المقدس دليل اكرامي الى الانسة اليزا . ب . فيلبس تذكاراً من (اسبير بدون جحا)

واقام ينتظر ما يكون من قبولها الهدية . هل يكون قبولها بدليل عادي ام هل تكتب اليه . واما هي فما ابطأت ان ارسلت اليه في الغد الجواب الآتي تعريبه

حضرة المستر جحا

ان اختيارك الكتاب المقدس دون سواه هدية لي هو افضل دليل على صدق حسن ظني بك واعتباري لشخصك وادبك وتاكد اننا سررنا جداً اذ عرفناك وندعو لك بالنجاح التام

اليصابات
فيلبس

وبعد ايام جاءه منها التحرير الاتي تعريبه

حضرة

« انقطعت عن زيارتنا هذه المدة فانا محتاجة الى قطعة من الحرير (وهنا وصفتها له) كنت قد رأيتها معك مرة واريد مشتراها فارجوك احضارها باسرع ما يمكن واذا لم تكن باقية معك فالرجاء احضار ما يماثلها »

وكان هذا الكتاب منها بمثابة دعوة لاسبير بدون فزارها وكرر الزيارة وكان يلقى كل ترحاب من اخوتها وكل رعاية من جميع افراد العائلة . وفي اخر مرة كان جامس حاضرا وكانت تود ان لا تدفع لاسبير بدون كل ثمن البضاعة حملاً له على الرجوع العاجل ولكنها اضطرت الى كتمان ما جال في خاطرها فاعطته تحويلاً بالقيمة ولا يزال التحويل في حوزته الى الان

الفصل الرابع

الحب الصحيح يرقي النفس · الحب في المدرسة

(الحب رباني وعلمني الادب)

اذا سمع الانسان منشداً في حفلة طرب ينشد الدور المشهور « الحب رباني وعلمني الادب » لا يخطر له ان هذه العبارة المألوفة الان كثيراً تحتوي على حقائق كثيرة . فان الحب في كل احوال الانسان وتقلبات التاريخ منذ نشأ العالم ما برح يؤدي الى الارتقاء وهو حقيقة يعلم الانسان ويرتقي به الى درجات عالية خصوصاً اذا كان المحبوب متعلماً مهذباً فان طبيعة الرجل تحمله على عمل كل ما يرضي معشوقه . يكون الشاب في اوائل امره مهملاً مسرفاً لا يهمه الارتقاء والتهذيب البالغ ولا يحفل بشيء من احوال التحسين اذ لا دافع يدفعه الى شيء من ذلك ولكن متى دخل نور الحب الى فؤاده انار عقله وحدد ذهنه وشدد مواهبه فهو يريد ان يزيد في قيمته وان يعلي من مقامه ولا شيء افضل من العلم خصوصاً في هذا العصر وفي تلك البلاد . فهو يجعل الشاب في مركز اسمى من مركزه الاصلي . الا ترى ما كان من امر يزيد

لما عجز عن قول الشعر في شبابه خلافاً لعادة العرب فلما عرضوا عليه حسناء ذات جمال ارتجل على مايقال قصيدته المشهورة

نالت على يدها مالم تنله يدي نقشاً على معصم اوهت به جلدي

كذلك كان حال الحب وتأثيره على اسبير بدون فانه لما آنس من اليصابات ميلاً اليه وعلق الامل على احرازها زوجة له وعلم منزلتها ومنزلة عائلتها من الادب والتهذيب المشهورين في الطبقة العليا من عائلات الاميركان — نظر الى ذاته فراى قلة استعداده بحكم قلة اسباب التعليم في سوريا يومئذ وقال في نفسه

اذا كنت استملت عواطف هذه الفتاة وكان في نيتي الحصول عليها فحقها على اكرامي ومودتي ان ارقي ذاتي لاكون اهلاً لها ولاصير قادراً على مقابلتها بمثل تهذيبها

كل هذا حمل الشاب على ترك البيع مادام قادراً من حين الى اخر للتردد على ديار العلم والتهذيب واكتساب ما امكن منهما والاجتماع بخيرة الاقوام . فشمر عن ساعد العزم لاحراز العلم مع مزيد احتياجه الى العمل لاحراز المال اللازم . وفي تردده على بعض كرام القوم صادفه حسن الحظ فعرف ذات يوم رجلاً تليانياً وسأله ان يساعده على تلقي العلوم والاكتساب وساعده هذه المرة حسن توفيقه في كل اعماله فلقي من هذا الرجل مودة وميلاً افاداه كثيراً في مستقبله وهكذا ازداد معرفة وعلماً واطلاعاً على عادات الاميركان واخلاقهم وادابهم وارتقت نفسه وعرف الفريق المرتقي من الاهالي فصار صديقاً لهم لابائعاً فقط

الفصل الخامس

ثبات الامل . الخادمة . مقدمات الخطبة

كل ما تقدم ذكره من ميل الشاب والفتاة كان محصوراً في خاطرهما ولم يظهر الى حيز الوجود ولا لفظا لفظة حب ولا تظاهرا بعمل يفشي سرهما لاخوتها واقاربها . ولكن للخادمات في كل بلاد وكل منزل اعين مراقبة

وخواطر حادة . وكانت حنة كبيرة خادمات عائلة فيلبس وكانت في منزلة مربية لاليصابات اوصتها ام الفتاة عند وفاتها ان تلازم ابنتها وتعتني بها وتحرص على راحتها فاقامت حنة مع والدتها الشيخة في المنزل ولها مكانة عظيمة

وانفردت حنة ذات يوم بسيدتها اليصابات فجرى لها حديث فقالت حنة

— يدهشني ان الخواجا جحا اطال غيابه عنا

— ولماذا يدهشكِ امر الرجل وهو غريب لا يهمنا امره وبائع لا يعرف مقره فهو رحالة من مكان الى اخر وربما لا يعود الينا ولا نراه

— ارجو ياسيدتي ان لا يكون ذلك واؤكد انه لا ينقطع من تلقاء نفسه عن المجيء فانما هو كثير الميل الى هذا المنزل ولا يمنعه عن كثرة التردد الا ادبه وجودكِ

— وماذا تعنين ياحنة بهذا الكلام

— عفواً سيدتي فانا اكبر منك عمراً وبالتالي فانا اكثر اختباراً . وقد قرأت في عيني هذا الشاب السوري قصائد التعلق بفتاة اعرفها

— وماذا يهمني امر هواه

— لا تكتمي عني الحقيقة فانني قرأت في عينيك مثل الذي قرأت في عينيه . وهل في الحب عار ياسيدتي

— هل تعنين انني اهواه

— لا اتجاسر على كل هذا التصريح ولكن اتجاسر فاقول انك لا تكرهينه

— صدقتِ ياحنة فهو شاب مهذب لطيف والان وقد بدأت هذا البحث اقول لك سراً انني اميل اليه كثيراً وهو اول رجل مال اليه قلبي ولا اخفي عنكِ انني ازداد تعلقا به فاذا تزوجت لا يكون زوجي الا هو

— حسناً تفعلين ياسيدتي فانكِ تجدين فيه رجلاً محباً اديباً يوفر لك الراحة خلافاً لما يصيب بناتنا مع اكثر شباننا الاميركان الذين اشتهروا بجرأة ووقاحة . واهالي الشرق يؤلهون زوجاتهم

كما اسمع خصوصاً متى اتفق لواحد منهم ان يجمع بين فضيلة الشرقي وتهذيب الغربي

– اراكِ باحثة في اخلاق الشعوب ولكن دعينا من هذا البحث الان واكتمي ماقلته لكِ كل الكتمان ولا تظهري له او لاخوتي شيئاً من ذلك

وانت تعلم ايها القارئ، ان المرأة موصوفة بعدم المقدرة على الكتمان ومع ان حنة ارادت ان تصدع بامر سيدتها لم تجد بدّاً من افشاء سرها فلم تجد اوثق من والدتها فاخبرتها بما كان واتفقتا على ترويج مصلحة الشاب الشرقي ومساعدته

الفصل السادس

تردُّد المرأة قبول

قال اسبيريدون في نفسه

– لا اظن ان هذه السيدة تحتاج حقيقة الى كل هذه البضائع فهي تشتري الشيء الكثير منها وتشتريه في دفعات متوالية فما الذي يجول في خاطرها وكيف اقدر ان اعرف مقاصدها

وحاول ان يقف على الحقيقة منها اذا زارها ذات يوم فقال اثناء الحديث

– انني شاكر لكِ اقبالكِ على مساعدتي بمشترى هذه البضائع التي اظن انها ليست لازمة لكِ

– اخطأت فانني استعمل اكثرها اذ احب ان ازيّن المنزل بالامتعة الشرقية لانها جميلة ثم انني اهدي الكثير منها الى صديقاتي

فاخرج اسبيريدون غطا طاولة شرقي جميل وبسطهُ امامها فاعجبت به كثيراً فقال

– انه ستار جميل جداً لطاولة حسنة فاذا اشتريته يكون افضل زينة لمنزلك الجديد

– واي منزل جديد تعني . فهذا منزلي

– اعرف ذلك ولكن عندنا في الشرق حكمة غير مجهولة عندكم وهي ان كل ابنة انما هي ضيف في منزل ابويها الى ان تتزوج فتكون اذ ذاك في منزلها

– لا انكر صدق هذه الحكمة الشرقية ولكنني خارجة عن هذا القياس فانني لا ارغب في الزواج ولي من منزلي والعناية باخوتي بعد موت والدتي ما يلهيني عن الاهتمام بذلك

ثم ارادت تغيير الحديث فقالت على الاثر

– ولكنني اشتري هذا الغطاء لا ستعمله في حفلة الاعياد . اما اسبير بدون فانه اكتفى بما علمه هذه المرة من حديثها . علم انها تشجعه على الميل اليها وانها لا تكرهه لانها اجازت له محادثتها بهذا الموضوع الخصوصي ولم ترده ردًا عنيفًا ولاحظ من حديثها ما شجعه على زيادة الانعطاف

فلما آنس منها كل ذلك اخذ يكثر التردد فلا يطيل بين زياراته وكان من حين الى اخر يحوّل مجرى الحديث الى سعادة الزواج ووجوبه حتى ملك واباها حرية المحادثة خصوصاً بعد ان علم من حنة انها لا تهوى رجلاً آخر وانها لا تميل الى احد من الشبان الذين يترددون على عائلتها فوجد ان قد خلاله الجو

***

وكان جامس شقيقها يميل الى اسبير بدون و يرتاح الى محادثته و يردد قوله انه يود زيارة الشرق والسياحة في سوريا والارض المقدسة وانه اذا زارها لا يودّ ان يرافقه الا اسبير بدون

***

قلنا ان اسبير بدون علم من محادثة الفتاة ومن حديث حنة ان اليصابات تميل اليه فزارها ذات يوم وهو ينوي حلّ الاشكال وعرض حبه اذ كان قد مضى زمن طويل على قلقه واضطرابه وامياله

فلما دخل المنزل قابلها في القاعة وكانت هناك وحدها فجرى لها حديث انتهى بهما الى ذكر سوريا فاخذت تسأله عنها وهو يشرح لها و يصور

وطنه بالشكل الذي يهوى كل انسان ان يكون وطنه فيه ثم قال

- هل تودين ان تزوري سوريا كما يود ذلك شقيقك

- نعم ارغب ذلك كثيراً فانني ميالة الى السياحة راغبة في درس اخلاق الامم فان التجول هو اعظم مدرسة للانسان

- وهل تذهبين اليها وحدك

- بل يرافقني اخي الذي علمت منه عظيم ميله الى زيارة سوريا

- حبذا لو تمت هذه الزيارة وحبذا لو اكون في سوريا عند ذلك فاراك هناك واقابلك بشيء من الاكرام الذي قابلتني به

- ولما ذا لا تذهب معنا فكم يكون سفرنا سوية جميلاً وكم نستفيد من وجودك

- ولكن انت تعلمين ان المسافة بعيدة والسفر شاق. والبلاد غريبة وعاداتها غير مألوفة منك . الا تفضلين ان تزوريها ومعك رفيق يعتني بك اكثر من عناية الاخ ويحرص على راحتك حرصاً لا تجده الاخت من اخيها

فاجفلت اليصابات لهذا السؤال الصريح وعلا وجهها احمرار زاده بهاء وزاد اسبيريدون ميلاً وقال

- ماذا تعني

- لا شيء سوى ان تسمحي لهذا السوري الذي عرفته من زمان ان يكون له حق حمايتك ومساعدتك ومرافقتك

- انا لا افهم مرادك

- الان وقد بدأت فلا اتوقف عن التصريح . انني منذ رأيتك ملت اليك ميل كل رجل يريد ان تكون حياته سعيدة . فاذا كان قلبك حراً وكانت يدك حرة وكنت تحسنين بي الظن كما ارجو فامنحيني حق محبتك واسمحي لي ان اكون رفيقك اولاً في السفر الى سوريا ثم في سفر هذه الحياة الطويل

فاحمر وجهها وحولته تحويل الخجل والارتباك فقال

- الان وقد صرحت بافكاري فصرحي انت

اذ ذاك وقفت اليصابات لا تتكلم وقام اسبير يدون ينتظر الجواب ودقات قلبه تزداد وحيرته تعظم . ثم رأى ترددها عن الجواب فذكر المثل الانكليزي القائل «متى ترددت المرأة فقد رضيت» ولكنها ما لبثت ان نظرت اليه نظرة الرضى يمازجه التردد والريب ثم قالت

- ان سؤالك جاءني فجأة . فانا لا اعلم الان ماذا اقول

- اما انا فقانع منكِ بالامل راضٍ بالانتظار الى ان تنظري في الامر

وعاش اسبير يدون الايام التالية على الامل وكان كثير التردد وفي كل زيارة يستأنف محادثتها وتسهيل الجواب حتى اجابته ذات يوم

- انني راضية بك ان اراد الله على ان لا تعجل في الامر وان نكتم ميلنا عن اخوتي

- ولماذا اكتم الامر وقد اتفقنا عليه

- لانك لا تعلم كل شيء واخوتي ينظرون اليك الان بمودة واكرام لانك زائر فقط . فمتى علموا انك خاطب انقلب الامر وتغيرت اميالهم فهم يكرهون ان اتزوج لانهم يكرهون ان اتركهم واترك العناية بهم وكلما علموا بميل شاب اليَّ صرفوه ومنعوه عن التردد ولعلهم ينوون لي زواجاً باحد معارفهم فاتبع نصحي والزم الكتمان

وهكذا انصرف والسرور ملء فؤاده وقد ابيضت الدنيا في عينيه ورأى كل شيء جميلاً . وعزم ان يكرس حياته لها وان يقيم على هواها مهما حالت المصاعب

الفصل السابع

القبلة الاولى . الحب الصحيح

صار المنزل الكائن على الاكمة المشرف على سويسفال وهو مستقيد قدساً يحج اليه اسبير يدون فيزوره ما استطاع . ولو عانى اديسون في اختراعاته ما عاناه هذا الشاب في اختراع الاعذار لزياراته لملأ العالم باكثر من اكتشافاته الشهيرة التي ملأت العالم مجداً ومدنية ونجاحاً

وحدث ذات يوم انه وصل الى المنزل فرأى حنة ووالدتها ورحبتا به كثيراً اذ علمتا حقيقة حاله وأميال سيدتها فكان من شأنهما الميل ايضاً اليه استجلاباً للرضى المزدوج ولما تجده النساء غالباً من المسرّة في خدمة العاشقين . وفيما هو ينتظر قدوم اليصابات جاءت حنة فصرحت له ان سيدتها تحبه وانها هي مسرورة لما اصاب سعيه من النجاح وانها تدعو له بمزيد السعادة والهناء وان نصيبه حافل بالراحة لان سيدتها من فضليات البنات جديرة بكل حب واكرام فشكر لها اسبير بدون غيرتها

ثم ان حنة قالت له - سر معي الى الحديقة تشاهد جمالها وتستنشق عبير ازهارها ريثما تحضر اليصابات

فسار معها وهو لا يعلم ما تكتم من عزمها الذي اتفقت عليه مع امها. وبعد ان جال برهة في الحديقة جلس على مجلس هناك بين التماثيل ومن حوله الازهار والاشجار الغضة فتأمل بما حوله تأمل المحب فرأى مثال اليصابات في كل شيء هناك . فالاشجار الباسقة مثلت قوامها والاغصان رقتها والزهر طيبها . وتصوّرها كل يوم جائلة بين تلك العرائس الطبيعية فتمنى ان يكون لكل غصن لسان ولكل وردة فم ليسمع ما يحدثان عنها

ثم انتبه من تاملاته الى حفيف اوراق الشجر و برزت من خلالها اليصابات وحيته فردّ التحية بمثلها وجلسا على المجلس سوية وهي ترحب به وتسأله اذا كان قد سرّه منظر الحديقه وحالها . وكانت حنة هناك ثم حضرت والدتها فاشترك الجميع في الحديث الى ان دنت حنة من جانب وامها من جانب آخر ودفعتا اسبير بدون حتى مال الى اليصابات وشدّتا به حتى صار اقرب اليها من قاب قوسين فرسم على وجنتها ختم المحبة بين ضحك المرأتين

واذا باليصابات قد افلتت كالغزال الشارد ووقفت حانقة وجال الدمع في عينيها ثم ظهرت دلائل الغضب والاستياء وقالت

= هذا غير ما كنت انتظره منك . قد عرفتك حتى الان في كامل التهذيب فما بالك تفعل ما يحملني على الريب!

فنظر اسبير بدون الى حنة ووالدتها نظرة العتب والملام وقال لاليصابات

= عفواً فما اردت شيئاً من ذلك ولكنها دفعتاني

فقالت اليصابات

= هذا اعتذار آدم اذ القى الذنب على حواء وانت تزيد عليه فتلقي الذنب على امرأتين

قالت حنة

= انما اردنا الانبساط والهزل فلا سبيل الى العتاب

اما اليصابات فانها انتهرت الخادمة حتى الزمتها الصمت ثم نظرت الى الشاب نظرة اثرت عليه كثيراً وقالت

= لستُ ارى لك عذراً فيما اقدمتَ عليه فانت تظهر خلاف ما املته . قد سمحت لك بمحادثتي وحتى الان لم امنحك الحق الذي يؤهلك لهذه الحرية فانت اذن تريد اهانتي . انت تحتقرني . اذ لو كانت لي كرامة لديك ما عاملتني هذه المعاملة

اما اسبير يدون فانه استعمل كل جهده لبيان اسفه واعتذر باوسعه الكلام فلم يقع لديها الاعتذار موقع القبول ولم تمحِ علامات الكدر عن وجهها . فخطر له خاطر فقال

= ان كدركِ هذا واصراركِ على عدم الرضى واظهاركِ هذا الاسف واحمرار وجهك كل ذلك يزيدني حباً لكِ واكراماً لادبك وتعلقاً بك

= كيف ذلك وقد فعلتَ ما ينزل مقامي في عينيك لو سمحت لك به مختارة

= ذلك صحيح ولكنك لستِ مختارة وقد وقع مثل هذا الحادث لاحد رجال العرب كما اذكر من تاريخهم فان سمحتِ لي حدثتكِ بحديثه فتعلمين اننا معشر الشرقيين على خلاف ما تتصورين واذ ذاك ربما تغتفرين لي

وفيما هو يتكلم بهدوء وسكون ورزانة سرّي عنها واخذت تصغي فلم ينتظر جوابها بل استأنف الكلام فقال

— اشتهر بين العرب رجل اسمه جميل يحب فتاة اسمها بثينة حتى نسب اليها وصار معروفاً بها فيقال (جميل بثينة) ومنعه اهلها عن زيارتها فجاءها

ذات يوم خفية واجتمع بها في خيمة ودرت خادمة باجتماعهما فوشت الى اهلها فاسرع والدها وشقيقها وقد اشتملا سيفيهما الى الخيمة يريدان الفتك بجميل ثم وقفا خارجاً يصغيان لحديثهما فسمعاها يتشاكيان الغرام والفراق الى ان قال لها جميل هل لكِ ان تسمحي لي بما يفعله المتحابان فانال قبلة منكِ فنفرت بثينة منه ونظرت اليه شزراً وقالت والله لقد كنت عندي بعيداً عن هذا ولو عدتَ اليه لن ترى وجهي ابداً فضحك جميل وقال والله ما قلته الا اختباراً ولو اجبتِ اليه لضربتك بسيفي هذا ان استطعت والا هجرتكِ فقال الاب للاخ لا ينبغي لنا ايذاء من هـذه حالاته ولا منع التزاور وانصرفا. فتجدين الآن انني في ما حدث كنت اولاً مدفوعاً بحيلة خادمتيكِ ثانياً انني ادركت بما حصل وما نتج عنه من كدرك العظيم مقدار ادبكِ فصرت اشد اكراماً لكِ وتقديراً لمقامكِ. والآن دعينا ندفن هذه الحادثة واقبلي اسفي واعتذاري

اما اليصابات فاصرّت على عدم الرضى واظهرت جفاء كثيراً وصرفته بطريقة لم تسره فقالت

= اودعك الآن وادعو لك بالتوفيق

= متى اعود لاراكِ

= لا يجب ان تعود فانني غير محتاجة هذه الايام الى شيء ومتى اردت بضاعة دعوتك

فخرج الشاب يتعثر باذيال الفشل والكدر

الفصل الثامن

رجع ما انقطع · عرف الحبيب مقامه · تعذيب الحب عذب

اقام اسبير يدون ينتظر ورود افادة من اليصابات او اشارة منها ولو بدعوى الحاجة الى شيء من بضائعه فلم يرد منها علم · ولما كانت قد صرفته آخر مرة وهي غاضبة خشي ان لا يكون قد زال تأثير ذلك الحادث من خاطرها وحدثته نفسه باقتحام المنزل والزيارة بدون استئذان ولكنه

خاف ان يزيد الطين بلة . فتصوّر كم كانت حالته مزعجة . كم كان يضطرب في تلك الايام والاسابيع والشهور التي اضطر فيها الى ترك الزيارة وهو يعلم الآن انها تهواه وتميل اليه

وانتظر صابراً نصف سنة لا يراها ولا يعلم من امرها شيئاً حتى عيل صبره وفرغت جعبة انتظاره فحمل ما خف من بضائعه في شنطة صغيرة وسار الى الاكمة فمشى متردداً حتى وصل الى الطريق المحيطة بالمنزل وصار يمشي ذهاباً واياباً فهو تارة يملأه الحب شجاعة على الدخول وطوراً يتهيب . واخيراً غاب الحب على الخشية فدخل المنزل . ولما علمت بقدومه وافته مسلمة باسمة قائلة

= اراك صبرت عن زيارتنا مدة طويلة

= انما اردت ان ابرهن لكِ طاعتي لارادتكِ فقد قلتِ لي آخر مرة انكِ تكتبين اليَّ فانتظرت حتى عيل صبري ولما لم يأتِ منكِ جواب تبعت المثل فاتيت الجبل

= ما امهرك في الاعتذار . اما انا فان اشغالي كانت كثيرة وقد خطر لي ان طول غيابك دليل على عدولك عن رأيك الماضي

= بل هو دليل على تمسكي به وانني لم اطق الصبر طويلاً فاتيت اتقاضاكِ انجاز الوعد

ثم جلسا برهة واصلحا ما كان قد افسده الغياب وجددا عهود المودة السرية واذنت له ان يزورها قائلة

= لك ان تزورني مرة واحدة في الشهر

فقال ضاحكاً :

= واذا حضرت بضاعة جديدة في غضون الشهر الا تريدين مشاهدتها

= اريد ذلك ولكن لا يمكن ان تحضر البضائع من بلاد بعيدة كسوريا في اقل من شهر

= بل ذلك ميسور اذا كان لها مثل قلة صبري على بعادكِ وشدة شوقي الى رؤيتكِ فتبسمت وقالت

= هذه مبالغات الشعراء
= نعم وكل عاشق شاعر

وهكذا عادت المياه بين العاشقين الى مجاريها لكن اليصابات كانت تجد لذة في قلق محبها شأن الفتاة التي تريد التثبت من محبة الرجل وهي تحسب ان العذاب عذب لكن الشاب كان يقاسي اشد العناء

وكأنها ارادت ذات يوم ان تمتحن مودته علماً منها بالمصاعب التي تعترضه من جهة عائلتها فلما زارها وبدأ محادثته بلهجة المحب ردّته رداً لطيفاً وقالت

= الا ترى ان الاوفق عدم التوغل في هذا الموضوع فربما انتهى بنا الى فراق
= كيف يكون ذلك ونحن على اتفاق
= انني غير ميالة كثيراً الى الارتباط بالزواج الآن وظروفي العائلية تحول دونه . ولا انكر انني اميل اليك ولكن لا اريد ان اقف في سبيل سعادتك فلا تنتظرني لان انتظارك يكون طويلاً جداً . واخوتي وحدهم ليس لهم من يعتني بهم سواي . وليس لي طاقة على تركهم بعد وفاة والدتي فسابقى عازبة الى ان يتزوجوا جميعاً وربما طال ذلك ١٠ سنوات وحرام ان اقيدك كل هذه المدة
= ماذا يهمك من كل هذا (اذا كان القاضي راضي) فانا راض بالانتظار ولو طال الامر كل تلك الاعوام فهل تعدين بالبقاء على العهود
= اريد ان اعدك ولكن لا اريد ان اكون حجر عثرة في سبيل سعادتك
= لكنك لست كذلك فان سعادتي كائنة في الامل وانا راض ان اعيش عليه

وبعد محادثة طويلة لم يقر فيها قرار انصرف مضطرباً وكان يغيب شهراً فيزورها الى ان زارها وجاءها بهدية فرحبت به وقبلتها شاكرة فعاش الامل في صدره ولكن في اليوم الثالث قابله شقيقها جامس في الشارع فقال له

– كلفتني اليصابات ان ادفع لك ٣٠ ريالاً
– ولماذا وهي غير مديونة لي بالمبلغ

— هي تقول انها في الحساب الاخير غلطت معك بالقيمة المذكورة

فادرك اسبير بدون ان لا غلط في الحساب ولكنها ارادت ان تدفع له قيمة الهديه فتكدر ورفض

وبعد مضي شهر ين زارها لاوَّل مرة بدون بضاعة زيارة غير تجارية . واذ ذاك اتفقا على ان يزورها في يوم معين من الاسبوع التالي الساعة الواحدة وذلك عند غياب اخيها ولما كان الموعد المعين وصل اسبير بدون الى المنزل فرأى الخادمة دينا وهي فتاة المانية فقال

= قولي للانسة اليصابات انني اريد مقابلتها

فتوقفت دينا برهة توقف المتردد ثم قالت بانكليزية مضطربة

= قالت لي سيدتي ان اقول لك انها غائبة . فضحك الشاب لسذاجة الخادمة وقال

= متى قالت لكِ ذلك

= منذ برهة قليلة

— واين هي الآن

— في غرفتها

قالت الخادمة ذلك وضحكت وضحك الشاب وكانت اليصابات مشرفة من غرفتها تصغي لحديثها وتضحك . ثم هرولت الى مقابلته معلنة انها اوصت الخادمة بذلك هزلاً وانها تود ان تراه

الفصل التاسع

عقد الخطبة سرًّا

مضى اسبير بدون في سبيله مسرورًا واخذ يمارس اشغاله باجتهاد حتى اذا كان خارج بتسبرغ جاءه التحرير الآتي

بتسبرغ في ٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٦

صديقي العزيز الخواجا اسبير بدون جنحا

يهمك ان تعلم ما آلت اليه حالة حنه بعد مرضها فهي الآن قد توجهت الى الصحة والمرجو ان تشفى تماماً . وقد علمتُ من تحريرك الاخير

انك تنوي المجيء الى المدينة في الاسبوع القادم فاخشى ان لا تراني اذ ان في نيتي الرحيل الى الجنوب في العاشر من الجاري مع اخي جامس واصدقائنا عائلة ستيل ولعلك لا تراني فيما بعدُ على الاطلاق فادعو لك بالسعادة الدائمة   اختك الامينة

اليزا فيلبس

ولا تسل عن كدره لما قرأ هذا الكتاب خصوصاً لانها ذاهبة مع عائلة ستيل وهو يعلم ان اخوتها يريدون تزويجها من احد شبان تلك العائلة . فعلم انها اذا مضت معهم قبل ان يراها و يستوثق منها ربما خسرها ولذلك اسرع الى المدينة وسار راساً الى بيت الخادمة حنة المجاور لمنزل فيلبس وهناك قابل اليصابات قبل سفرها بساعات معدودة فجددوا عهود مودتها وسألها ان لا تطيل غيابها اكثر من اسبوعين ليتم في نهايتها عقد الخطبة اذ حان اوانها ولا يوافق ان تدوم علاقاتها هذه بدون تأكيد صلاتها الودية برابط الخطبة القوي

بعد ٣ اسابيع جاءه منها تحرير يفيده انها عادت من رحلتها فاسرع الى مقابلتها واتفقا على عقد الخطبة وان يكون عقدها سراً حتى لا تثير غضب عائلتها ريثما تتدبر طريقة لاسترضاء اخوتها . وبعد تأمل طويل قررا ان يعقدا الخطبة بوجود الخادمة حنة وان يكون ذلك خارج المدينة في بقعة من الارض خاصة بها ومن املاكها الخاصة فاختارت اليصابات مكاناً فسيحاً كثير الغابات والاشجار في لوستهام وهي بقعة من الارض خاصة بها وحدها اذ ارادت ان لا تعقد خطبتها في ارض مشتركة بينها و بين اخوتها

فلما كان اليوم الثاني وصل اسبير بدون الى محطة سكة الحديد وهناك وافته اليصابات ومعها حنة فوصلا الى المكان المقصود ظهراً ومشوا في الارض مسافة بين الاشجار والازهار حتى وصلوا الى وادٍ جرت فيه ساقية غزيرة المياه يتعذر اجتيازها لعدم وجود جسر فوضع اسبير بدون بعض الحجارة الكبيرة في عرض النهر الصغير وساعد حنة حتى عبرت ثم عاد

ليساعد اليصابات وفيما هي تعبر على الحجارة زلت قدم اسبير بدون فلم يقع ولكن غمرت المياه رجله وبلت ثوبه لكنه تمكن من نقل اليصابات سالمة اما هي فانها استاءت لهذا الحادث وتشاءمت منه حاسبة ان عملها لا يكون مقروناً بالتوفيق . فازال الشاب ظنونها ثم ساروا من هناك حتى وصلوا الى ارفع قمة وهي حافلة بالاشجار الكبيرة التي كانت تلقي ظلها على مسافة من الارض وقد احضروا معهم طعاماً فاكلوا ضاحكين فرحين واحضر اسبير بدون قهوة من منازل المزارعين المجاورة حتى اذا انتهوا من ذلك عقدوا الخطبة في تلك البقعة الجميلة على الكيفية الآتية

ركع اسبير بدون في ظل شجرة وامامه ركعت اليصابات ووقفت حنة بجانبهما ورفع اسبير بدون نظره الى السماء ماسكاً يدها وتلا الصلاة الربانية ثم سأل الله ان يجعل التوفيق نصيبهما وان يبارك هذا الاتفاق ويجعله مقدمة اتفاق ابدي مبارك

وكانت اليصابات تؤمن على كل كلمة من كلماته فلما فرغ سألت الله ان يشملها بالبركة وينعم عليها بدوام الوفاق

ثم ان حنة وهي واقفة بجانبهما صلت لله بلغتها الالمانية وقالت انها شهدت هذا الوفاق داعية لها بالسعادة والهناء

واذ ذاك وضع اسبير بدون خاتم الخطبة في اصبع اليصابات وهي وضعت الخاتم الآخر في اصبعه وهكذا كان عقد خطبتهما

****

وصلا الى المحطة في بتسبرغ فوجدا الخادم ينتظر مع العربة فركبا وسار اسبير بدون مع خطيبته حتى جانب المنزل ثم تركها فسارت وحدها

ولما كان المساء واجتمع اخوتها رأوا الخاتم في اصبعها فدهشوا وسألوا عن امره فانتبهت وقالت

— هو خاتم صديقة لي اخذته منها هزلاً ولم يزل في يدي

ولما لم يكن في علمهم شيء مما بينها وبين اسبير بدون انطلت عليهم الحيلة ولم يبالوا بالامر كثيراً

وظل اسبير بدون يتردد عليها في منزل حنة لكنه خشي ان ينكشف سرهما فارتأى ان يساعدا حنة على الزواج فيسهل لهما الاجتماع بدون حذر وابلغوا حنة ما خطر لهما فرضيت وما لبثت ان عثرت على رجل فتزوجته واقاما في منزل قريب من منزل عائلة فيلبس وهناك كان اجتماع العاشقين كثيراً

الفصل العاشر

اعلان الامر لاخيها · بداية العذاب والاضطهاد

كان قد تم الاتفاق بين اسبير بدون واليصابات على الصبر نصف سنة يكتمان في غضونها امر خطبتها ثم يعقد لهما عقد الزواج فلما مضى الاجل المعين سألها اسبير بدون الانجاز وان تسمح له بطلب يدها من اخيها جامس فاجابته

— لك الان ان تسأله ولكنني اخشى كثيراً ان لا يقابلك بالحسنى

— ولو فرضنا انه رفضني وعارض في زواجنا فماذا تفعلين

— اذن تسمح لي بوقت لاسترضائه

— وكم يكون ذلك الوقت

— الى جمعة واحدة وبالاكثر الى شهر واحد

— واذا مضى الاسبوع وتلاه الشهر فبقي مصراً على الرفض ماذا تفعلين

— اذ ذاك اكون طائعة لارادتك فلا ابالي برضاه واذهب معك الى اي مكان في اي زمان

فشكر لها كثيراً صدق ودادها وعظيم ثقتها وانصرف واعداً ان يوافيها في منزل حنة بعد ان يقابل جامس ليطلعها على ما يكون

وقصد مقابلة جامس مراراً في مراكزه المألوفة فلم يتوفق الى وجوده واخيراً انتظره ريثما مشى في شارع كراند فتبادلا التحية واظهر له جامس كل محبة ووداد كما هي عادته المألوفة · وكان جامس يحب اسبير بدون

ويميل اليه حقيقة · وسارا سوية في الطريق يتحادثان وجرى لهما حديث عام فقال اسبيريدون

– انت يامستر فيلبس صديق لي على ما ظهر حتى الآن

– نعم واريدك ان لا تشك في صداقتي

– هل تريد ان تزيدني تمسكاً باعتقاد صداقتك فتقضي لي امراً يهمني كثيراً

– بكل سرور افعل مهما تشاء وتجدني مستعداً لخدمتك ومساعدتك بكل ما يلزم فلا تخجل من التصريح بحاجتك انها مقضية اذا كان قضاؤها في امكاني

= نعم ان الامر كله بين يديك ومتعلق عليك

= قل ما تريد

= ارجوك ان تساعدني للاقتران من شقيقتك الانسة فيلبس

وكانا قد وصلا عند هذا الحديث الى رصيف الشارع الواقع تجاه دار المحكمة حيث الالوف من الناس ومئات من المحامين ورجال البوليس فما لفظ اسبيريدون تلك الكلمات الاخيرة حتى انقلبت سحنة جامس وتغيرت اطواره واصفرّ وجهه حنقاً وارتجف غيظاً وهو كبير الجثة قوي العضلات فما اتم اسبيريدون سؤاله حتى تحوّل اليه جامس على قارعة الطريق وامسكه باليد الواحدة من عنقه وباليد الاخرى حاول اخراج مسدس وصاح بالشاب السوري

= ويحك باشقي يا تركي قد احببتك اعظم حب وانزلتك اعظم منزلة ووثقت بك فاذا بك الآن تريد ان تسلبني اختي

واخذ جامس يزعق ويصيح ويواصل الشتائم واللعنات بلغة قبيحة منكرة حتى اجتمع الناس حولهما من كل جانب وكان الرجل كما ذكرنا من امر عائلته ومقامها العظيم معروفاً في المدينة فادهش الناس سلوكه اما اسبيريدون فلما رأى ما جرى مما لم يكن في حسبانه تخلص من يد جامس بالتي هي احسن وقال

= اذن انتهى الامر بيننا وقد كان في وسعي رد الاهانة اليك لولا

ما يمنعني من احترام شخص احترمه اكثر منك . ولو كنت انا جامس فيلبس لخجلت من هذا التصرف

وانصرف من بين الجماهير تاركاً جامس في جمهور من الناس يغضب ويسب وذهب راساً الى محل التمرين على اطلاق البنادق . ولم يكن قد جرب اطلاق واحدة في حياته فقال في نفسه

= ساجرب ان اصيب الغرض فاذا اصبته كان لي مستقبل حسن ولا اخشى شراً واذا لم اصب علمت انني سافشل في سعيي

ولما جرب اصاب الغرض اولاً وثانياً ولم يصب ثالثاً فعلل النفس بالنجاح ولكن بين صعوبات كثيرة

ولما كان المساء ذهب الى منزل حنة فوجد اليصابات تنتظره على مقالي الجمر وهي تبكي حذراً من نتيجة ما يكون فاخبرها بما جرى وما كان من اخيها فقالت

= قد كان قلبي دليلي فلم يهدأ لي بال

= والآن ما رأيك وماذا تفعلين بعد ان علمت رأي اخيك

= لا ادري الآن ماذا افعل وانما اعلم انني ساجرب استرضاء اخوتي بما في وسعي من الوسائل الودية

= وهل تعدين ان تقيمي على عهودك مهما كانت النتيجة

= اعدك بكل ذلك

= ولا اكتم عنك يا اليصابات انني مضطر الآن الى استئناف اشغالي وملازمة اعمالي فعليك ان تحتمي الآن حتماً نهائياً في اي طريق تسيرين . تأملي ما دام وقت حتى اذا وجدت انني موافق لك وتأكدت انني امين في ودني وانني احبك حباً صحيحاً عديني بالثبات معي واذ ذاك لا ابالي بتهديد اخوتك واقابلهم بشجاعة واقاومهم

= وهل ترضى ان اتركك

= كلاً بل اريد ان اكون على يقين لاعلم ماذا افعل . واريد قبل كل شيء ان اضمن لك راحتك . فاذا علمت انك ستلاقين من اخوتك عذاباً ومعاملة سيئة وانك لا تقوين على الاحتمال فاستعملي حكمتك واتبعي

ارشادات قلبك . ولم اخف عنك في كل اجتماعاتنا ومنذ عرفتك كما لا اخفي عنك الآن انك اذا بقيت على ولائي واخترتني دون اخوتك فانما تختارين رجلاً فقيراً لم يتظاهر بالثروة ولا يعدك الأ بالمحبة الثابتة ثم تأملي ايتها العزيزة اليصابات فيما انت مزمعة ان تفعلي . انت ذات ثروة ومال كثير وقد عشت حتى الآن غارقة في بحار النعمة والراحة ولديك الخدم والاعوان مقيمة بين خاصة قومك واشرف عائلات المدينة فاذا اصر اخوتك على رفضهم ربما حرموك من ثروتك واذ ذاك لا تجدين مع محبك هذا الأ المعيشة الصعبة والعناء . فبعد ان عرفت كل هـذا هل انت متأكدة انك تفضلين هذا المحب

= نعم بكل رضى مهما آل اليه الحال ومع ذلك فانني ساجرب واسعى حتى اقنع اخوتي بالرضى فيأتون بك من تلقاء انفسهم الي ويرحبون بك

= واذا تعذر الامر عليك

– عند ذلك اضع ذاتي بين يديك وافعل ما توحي الي به ولو عاندتني كل المصاعب وكل العائلة

الفصل الحادي عشر

جامس واليصابات وجهاً لوجه

تركنا جامس فيلبس على الشارع محاطاً بالجماهير وهو يرغي ويزبد ويتوعد وينذر ثم انتبه الى ذاته ورأى ان الامر يحتاج الى تدبر واهتمام وتذكر اذ ذاك ان اسبير يدون كان يكثر التردد الى المنزل فعلم ان غايته لم تكن تجارية فقط . وذكر انه رأى خاتم خطبة في يد اخته وانها احتالت في جوابها عنه . فادرك ان المودة بين العاشقين قد تمكنت قبل ان يدري بها . ثم ذكر ثروة اخته العظيمة وانها اذا نالت مرادها وزفت الى الشاب السوري يحرم من الانتفاع بالمال لانه كان وكيلاً على اعمالها فازداد غيظاً ولما كان المساء وصل الى المنزل وقد عاقر الخمرة في طريقه لشدة

غيظه فازداد حدة ولما دخل المنزل ورأى اليصابات صاح بها صيحة ارعبتها وقال

— يا لكِ من شقية . انك احتلتِ علينا ولم تبالِ بشرفك وشرف عائلتك فسلمتِ قيادكِ لشاب جاهل تركي احمق . الا تعلمين ان هؤلاء الاتراك يتزوجون العشرات من النساء فكيف يكون حالكِ . وبعدُ فان امركِ ليس بيدك ونحن اخوتكِ لانسمح لك بهذا التصرف السيء . فالآن عليك ان تتركي هذا الرجل وان تمتنعي عن مقابلته ومكاتبته او يكون لي ولك شأن

= يظهر يا اخي انك اخذت من الخمرة ما يزيد على احتمالك فانا لا الومك ولا احفل بكلامك

= بل يجب ان تحتمي قبل الندم فوالله لا ينالك هذا الشاب وواحد منا حيّ . الا تعلمين انه راغب في مالك لا في ذاتك . هل انت حمقاء الى هذا الحد حتى تجهلين انه لا يهواك ولا يوافقك

= بل عرفته منذ ٨ سنوات فلم اجد منه الا كل شهامة وكرم اخلاق وحسن تصرّف وكان حتى اليوم صديقك العزيز

= لم اكن اعلم انه يستعمل صداقتي في سبيل الحيلة ومهما يكن من امره فلا يفوز بكِ واذا لزم الامر اقتلكما قبل يوم الزواج

****

ثم ان جامس انتبه الى عدم الحكمة في هذا التصرف فعمد الى الرقة واللين واخذ يخاطبها بلطف مظهراً مودته واعتياده على حبها والعناية باخوتها وانها مضطرة الى حفظ شرف العائلة الى ان قال

= ومع ذلك فانت لا تعلمين من امره شيئاً ولا من امر عائلته

= الناس لا يتزوجون العائلات بل الرجل وهو اهل لمثلي ولست افضل منه

= لا بأس فالاوفق ان تنتظري ريثما نسأل عنه ونستقصي منزلته وعائلته فهل تعدين بالانتظار

— افعل ما تريد

— واذا ظهر لك ان عائلته غير حسنة وعلاقاته غير موافقة هل تتركينه

— انا واثقة انه حسن وموافق فلا يهمني امر عائلته ولا اتركه

وانتهى الحديث بغضب عظيم وافترقا والكدر مستولٍ عليهما

ولما كان اليوم الثاني ذهب جامس الى مدير البوليس السري (الخفية) وسأله مساعدة بعض انفاره في مراقبة اسبيريدون واخته ومنع التزاور والمكاتبة . اما المدير فاجاب

— انت تعلم يامستر فيلبس ان هذه المسألة عائلية خاصة لا علاقة لها بالحكومة والشعب فلا حق لدائرة البوليس ان تتداخل فيها ولذلك ارفض طلبك

ولا يخفى وجود دوائر خصوصية حائزة على رخصة من الحكومة للخدمة السرية مثل دائرة بنكرتون وسواها التي ترسل افرادها بصفة بوليس سري للعائلات والحوادث الخصوصية فعمد جامس الى دائرة معروفة في بتسبرغ باسم دائرة مونسي واستخدم خمسة انفار لمراقبة اسبيريدون ومعرفة محل وجوده والاماكن التي يتردد عليها فتفرقوا في جهات مختلفة يراقبون الرجل تارة في هومستدال وتارة في حي السوريين وبحثوا عنه وعن عائلته وعلاقاته حتى لم تخفَ عليهم خافية

الفصل الثاني عشر

الاحتيال للمقابلات . الخفية . اجتماع سريّ .

اسبيريدون في خطر

علم اسبيريدون بعد مقابلة جامس ان قد امتنع عليه زيارة خطيبته في منزلها وانه مضطر بعد الآن الى الحذر فعمد الى طرق العشاق من الاحتيال على المقابلات والعلم باحوال احدهما الآخر فاستأجر غرفة في هومستدال مشرفة على منزلها وكتب اليها مع مخصوص انه سيقيم تجاه بيتها ليراها واشترى نظارة مكبرة وبندقية وبدلة صيد كان يستعملها للتجوّل في الغابات المجاورة فلا ينكر الناس امره في كل اوان

ثم كتب اليها مع زوج حنة فوافته الى منزل الخادمة واتفقا على علامات خصوصية يفهمان منها بعض الامور الهامة فجعل اطلاق بندقيته مرة واحدة دلالة على وجوده هناك ومرتان دلالة على السلام والتحية الخ وانه ينير الشموع من غرفته كل ليلة فكلما اختلف عدد الانوار اختلفت المعاني المتفق عليها على ان المكاتبة بينهما لم تنقطع بوسائط سرية مختلفة وكانت تخابره بواسطة زوج حنة

وكتبت اليه ذات يوم مايدل على صحة حبها قالت ما تعريبه

« ان اولاد امي قد غضبوا ولكن ابنتها لا تغضب وقد اضطروك الى تمضية لياليك وايامك في الغابات كانك حارسها وجعلوني ناسكة في هذا المكان المقفر . ولكن الاتحاد بين قلبينا يزداد حتى لا سبيل الى التفريق بينهما مهما عظمت المصاعب قد رأيت ليل امس والذي قبله والليلة ايضاً نور مصباحك الذي يلقي اشعته عن بعدٍ على فؤادي فما ابعد المسافة التي يصل اليها نور ذلك المصباح الصغير . وكذلك اشعة العمل الصالح في عالم الشرير »

وحدث مساء ذات يوم لما اشتد تضييق البوليس السري عليهما انه اراد مشاهدتها والاجتماع بها في منزل الخادمة فاتى المنزل ليلاً في عربة نقل يسوقها زوج حنة والظاهر ان حنة كانت تلعب دوراً مزدوجاً فهي تتظاهر بمساعدة العاشقين ثم تفشي اخبارهما الى جامس وكانها اتفقت مع جامس هذه الليلة على السعي في احضار اسبيريدون الى منزلها ليوقع به فلما وصل اسبيريدون الى المنزل لم تكن اليصابات قد حضرت فانتظرها على مقالي الجمر حتى جاءت فاخبرته بما فعله اخوتها معها من الحدة والظلم وانهم حاولوا مراراً حملها على اخذ شراب فلم تفعل وهي تخشى انهم اضمروا لها الشر والاذى وان السم في ذلك الدسم . فانهم ارادوا من ذلك المشروب

ان يؤثروا على عقلها ليتخلصوا منها وليتمكنوا باعلان جنونها من القول انها غير صالحة لادارة مصالحها ليستولوا على املاكها ومالها و يحجزوا حريتها

وفيما هم جلوس يتحدثون اذا بالكلاب تنبح خارجاً كانها تنذر بقدوم طارق فاجفلت حنة وكأن الخوف استولى عليها فصارت تبكي فقالت اليصابات

– مابالك تبكين

– اخشى حصول شر واذى لكما و بالاخص لاسبير يدون

– ومن الذي يحاول ان يؤذينا بل من يعلم باجتماعنا

– ان جامس عالم بكل شيء ولست ادري من اعلمه بوشك اجتماعكما واخشى انه هو القادم الآن مع رجال الخفية

فلا تسل عن خوف اليصابات ودهشة اسبيربدون لما لم يكن في الحسبان من اقتحام العدو محل اجتماعهما

واذ ذاك امرعنا فادخلنا الشاب الى شبه خزانة في الغرفة ومعه بندقيته حتى اذا دخل الرجال لا يبصرونه . وامرعت اليصابات في الانصراف وتأخرت حنة عنها فعادت الى حيث كان اسبير يدون واخذت بندقيته قائلة

– لا يلزم تركها معك خوفاً من الاذى

ولكن اليصابات سمعتها فعادت غاضبة واخذت البندقية منها وارجعتها الى خطيبها قائلة

– انا اكره ان يصاب اخوتى باذى ولكن اذا اضطرك الامر دافع عن نفسك فذلك حق صريح لك

وخرجت مع حنة حتى اذا صارت خارج المنزل رأت جامس والرجال فانتهرها شقيقها قائلاً

– ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت من الليل

– ذلك من شأني ولا شان لك فيه وانا عائدة الى المنزل

– حسناً تفعلين

– وحسناً تفعل ان تاتي معي

– لي شغل شاغل هنا

– بل واجبانك الاولى ان تعتني بي فارجع معي

— اريد مقابلة شخص هنا

— لا يوجد احد هنا الان وليست المقابلة اهم من عنايتك باختك

وكان جامس يريد استرضاءها فظن انه يستفيد من العمل بارادتها وهكذا سار معها الى المنزل . اما اليصابات فانها اوعزت الى رفقائه بالانصراف وسارت حنة معها الى المنزل وبعد ربع ساعة عادت الى اسبيريدون وكان لا يزال مقيما في الغرفة لا يعلم ما يكون ولا كيف يتيسر له الخلاص فقالت حنة

— قد ذهبوا ولولا حكمة اليصابات واصرارها لدخل جامس ورجاله ورأوك وقتلوك

فشكر الله واثنى علي حكمة عروسه وودع وانصرف وكان الليل شديد الحلك والطريق وعرة في تلال وغابات ومنحدرات كثيره الاعشاب فمشى قاصداً غرفته حتى اذا كان في ظاهر الاكمة زلت قدمه فنجم صوت كان له دوي في ذاك الهدو الشامل واذا بصوت ينادي

— من هذا

وكان المتكلم احد رجال الخفية الذين وضعهم جامس حول المنزل لمراقبة اسبيريدون وادرك الشاب الخطر المحدق به ولكن لحسن حظه كان الرجل نائماً قبل حدوث الحركة وهو بين مستيقظ ونائم وكان اسبيريدون يعلم ان الخفية هذا رفيق للآخر المسمى جاك فعمد اسبيريدون الى الحيلة وقال بصوت جهوري مقلداً صوت جاك

— لا احد سواي . كل شيء هادي . فلم ينتبه البوليس كثيراً وعاد الى راحته واستأنف اسبيريدون السير حتى وصل الى غرفته سالماً

وكان جامس قد احضر عربة مقفلة واوقفها مدة ثلاث ليالٍ في جوار منزل حنة قصد ان يقبض على اسبيريدون و يبعده الى مكان خفي فلم يفلح

الفصل الثالث عشر

الالتجاء الى الحيلة · العرّافة والبخت · مسز هيوز · مسز فانكرك

عجز جامس فيلبس فلم يجد طريقة لاقتناع اخته ان تعدل عن ميلها الى الشاب السوري فلجأ الان الى الخرافات وتاثيرها شان الغريق يتعلق بحبال الهواء · وكان في المدينة عرافة مشهورة اسمها (مسز هيوز) تبصر البخت وتقرأ للناس ما تزعم انه حقيقة مستقبلهم وكانت اليصابات لما ضاقت بها الحيل تجاه تعذيب اخوتها قد زارت هذه العرافة لا اعتقاداً بقدرتها على كشف ستار المستقبل بل تعليلاً للنفس بالامال شان اكثر بنات الاميركان فاحسنت المرأة وصف حالها واكثرت من اطراء العاشق · والظاهر ان جامس علم بزيارة اخته فظن ان هذه افضل الوسائط للتاثير على اميالها فزار المراة ودفع لها مالاً وغراها على تقبيح هذا الزواج لاخته وشرح لها ما يجب ان تعرفه حتى تثق بها اليصابات ثم اغرى حنة لتحمل سيدتها على زيارة العرافة لترى رايها في حالتها وامر عاشقها فلما وصلت اليصابات اخذت العرافة تحدق في يديها وتقرأ وتعزم شأن هؤلاء العرافات المحتالات ثم قالت

— انكِ يابنتي في قلق عظيم وتعب اعظم تحيط بكِ المصائب من كل جانب وعذابك هذا ناتج عن ميلك الى رجل غريب اجنبي فبرجكِ هو برج المريخ وسعدكِ يحترق فيه لكثرة نيران الاكدار العتيدة فامامك مخاطر وحياتك يتهددها شقاء عظيم اذا اتبعت هوى نفسك فالظاهر لي من مراقبة النجوم والابراج انك كنت حتى الان سعيده ولك عائلة تحبك واخوة يتفانون في الميل اليك وانت تحبينهم ايضاً حتى صرت لهم في منزلة ام حنون ولكن يظهر الان ان سهم القضاء اعترض سعادتك بدخول رجل اجنبي استولى على قلبك ونصيحتي اليك ان لا تشجعي هذا

الاجنبي وان لا تميلي اليه فالنجوم تقول لي انه لا يحبك وانك اذا خالفت نصيحتي وتزوجت منه فهو يأخذك الى بلاده وبلاده بعيدة وهناك يهملك بعد ان يأخذ مالكِ و يتركك وحيدة فقيرة في بلاد اجنبية وانتِ غير قادرة على السعي وراء رزقكِ . ان في يديكِ اعظم شاهد على ذلك خصوصاً في رقتها ونحافتها واستدل من حالتها انكِ لم تعملي عملاً يدوياً كل حياتكِ شأن ذوات النعمة والجاه فكيف يكون حالكِ متى تركك الرجل في بلاد غريبة فاتبعي نصيحتي ان الرجل الاجنبي راغب في مالكِ ولو كنتِ فقيرة ما مال اليكِ وفضلاً عن ذلك فان برجكِ ينذر بتعاسة عظيمة ويلوح لي ان الرجل لا يعيش طويلاً لان اخوتكِ ينوون قتله اذا بقيتِ مصرَّة على هواه فالاوفق لسلامتك وسلامته ان تفترقا

فلما سمعت اليصابات اقوال العرافة رأت انها موافقة تماماً لاراء اخوتها وذكرت اصرار الخادمة في حملها على زيارة هذه المرأة فقالت في نفسها ما هذه قراءة مستقبل بل هي حيلة من اخي ولا اشك انه زار هذه المرأة واغراها على ابداء كل هذا لي سعياً وراء اقناعي وارادت ان تتأكد ذلك فقالت للعرافة

= انكِ في اقوالكِ واعمالكِ تسعين وراء التجارة والارباح المالية وقد زاركِ بالامس اخي

= كلاً لا اذكر اني اعرفه

= انتِ تعرفينه وقد زاركِ لانه مثلي تماماً ولا يخفى عليكِ ذلك وهو قال لي انكِ قرأتِ له بخته

= هل قال لكِ ذلك

= قال انكِ قرأتِ البخت بذكاء والآن قولي لي بصراحة الم يأتِ اليكِ فدفع اجرة مقابل ابلاغكِ اياي كل هذا

= اذا كان قد افشى سره فلا بأس من الاعتراف انه اتاني حقيقة

= اذن انتِ ساعية وراء المال فانا اسألكِ افادتي عن الحقيقة ولكِ عندي اجرتكِ

= اذا دفعتِ لي خمسة ريالات فعلت

فدفعت لها اليصابات المال فقالت العرافة

= الآن اقول لكِ الصدق . اذا كنتِ تحبين هذا الشاب فاتبعي هواكِ وليكن قلبكِ دليلكِ

وهكذا عملت اليصابات حيلة اخوتها

الفصل الرابع عشر

القبض على اسبيريدون . في طريقه الى الحبس

تلاعب في ادارة البريد

ظهر للقاري من الحوادث الماضية ان اخوة اليصابات استعانوا بالبوليس السري على منع اجتماعها بخطيبها فلم يفلحوا . وعلى منع المراسلات فخاب سعيهم . وحاولوا تعطيل عقلها باعطائها مشروب معلوم فلم تقع في حبائلهم . وانهم استعملوا كل واسطة ليحملوها على ترك الشاب السوري فكانت النتيجة انها ازدادت تمسكاً به ولذلك عمدوا الى طريقة اخرى هي الوحيدة الباقية لديهم ذلك انهم اعتماداً على ثروتهم ونفوذهم بالنسبة الى حاجة الفتى وعدم وجوده بين ذويه ارادوا الايقاع به وزجه في السجن للتخلص منه اولاً بمنعه عن مقابلة اختهم ثم ظناً منهم انهم متى سجنوه تنفر منه لما في السجن من السمعة السيئة

[اما] اسبيريدون فلم يكن عالماً بما اضمروه له ولذلك اتفق مع اليصابات على ان يمضي في اشغاله مدة ربما ترى طريقة لاقناع اهلها فذهب الى تاجر ارمني واشترى سجاداً ليتاجر به في رحلاته وفي اليوم التالي ذهب الى التاجر استعجالاً لشحن البضاعة فقابله شاب هناك وقال له

= ان رجلاً سأل عنك ويريد ان يراك

= وهل تعلم من هو

= كلاً وانما حضر مراراً في اليومين الاخيرين والحّ في السؤال

عنك والاستعلام عن محل وجودك

— وما هي اشاراته

فذكر الشاب اشارات رجل عرف اسبير بدون منها ان الساعي وراءه هو روبرت شقيق اليصابات فخبره الامر ولم يعلم غرضه من السعي لمقابلته

وصباح اليوم المعين لسفره خرج من غرفته قاصداً الفندق لتناول الطعام فمرّ في طريقه على ادارة البريد وسأل فتاة هناك عن تحرير باسمه فسلمته تحريراً عليه عنوان

Mr. S. J. Jeha,
General Delivery

ولما قلب الظرف انتبه الى حصول تلاعب فيه وانه مفتوح فعاد الى الابنة وقال

— هذا التحرير مفتوح فكيف كان ذلك

— ان رجلاً حضر مراراً في اليومين الاخيرين وكان يسأل عن تحرير بهذا الاسم واليوم حضر فاعطيته هذا التحرير وبعد ان فتحه رده اليّ قائلاً انه ليس له وانه فتحه غلطاً

— وهل تعرفين الرجل

فذكرت الفتاة علاماته وادرك اسبير بدون للحال انه جامس بالذات وواقع الامر ان جامس اراد الاطلاع على ما يدور بين الخطيبين من المراسلات ولكن التحرير الذي فتحه لم يطلعه على شيء لانه كان مكتوباً باللغة العربية وهو تحرير وارد الى اسبير بدون من صديقه ابرهيم الغرزوزي

اما اسبير بدون فانه عاد الى اللوكاندة في هومسدابل وفيما هو سائر اذا برجل يناديه فوقف · فاقترب منه الرجل الغريب وقال

— هل انت الخواجا اسبير بدون جحا

— نعم انا هو

— اذن سر معي

— والى اين

— الى السجن فان معي امراً للقبض عليك

فاجفل الفتى لهذا الخبر وقال

— وما ذنبي

— لا اقدر ان اخبرك وكل ما اعرفه انني مأمور بالقبض عليك

— أرني الامر

فاخرج الرجل ورقة رسمية واطلعه عليها بدون ان يسلمه اياها

— ومن هو المدعي عليّ

— الخواجه جامس فيلبس

ووجد اسبير يدون ان الحكمة تقضي بمراعاة الاحوال وعدم المعارضة فقال

— انا بين يديك فافعل واجباتك

عند ذلك اخرج الرجل قيداً حديدياً ووضع طرفه الواحد حول يد اسبير يدون اليمنى وابقى الطرف الآخر من القيد في يده كما هي عادة البوليس فقال اسبير يدون

— وهل انا مجرم حتى تستعمل هذا القيد

— هكذا أُمرت ان افعل والاَّ وضعوا القيد في يدي

— لك ما تريد ولكن ستندم كما يندم الذين دفعوك الى هذا العمل

اما البوليس فضحك ومشى في طريق مخالفة فقال اسبير يدون

— الى اين من هنا

— الى سجن بتسبرغ فلا تعارضني في كيفية اجراء واجباتي

وهكذا سارا الى محطة بنسلفانيا وكان ينتظرهما هناك جامس والخفية واحدهم البوليس جاك المشهور بعدائه للشاب وانتقائه الى جامس فاقتربا منهم وقال البوليس واسمه مونسي لجامس

= هل هذا الرجل المراد

= نعم هذا هو التركي الشقي لا بارك الله فيه

فضحك اسبير يدون ضحكة الاستخفاف وقال

= ستندم على عملك ياجامس

فلم يكن جوابه الاَّ الشتم والاهانة

اما مونسي فسار بسجينه وركبا العربة العمومية . ورأى الشاب فيها

بعض معارفه الاميركان الذين ادهشم انه مقيد ولم يعلموا السبب وخجل الفتى ان يفاتحهم بحديث وهو في تلك الحالة

وفيما هم على الطريق اخذ اسبير بدون يتأمل في حالته وماذا يجب ان يفعل وعلم انه اذا وصل الى السجن بقي فيه طويلاً ولا يجد من ينقذه وربما تمكنوا من كتمان امره حتى لا يعلم به احد وتذكر تهديدهم ووعيدهم وكم مرة قالوا له ولاختهم انهم لا يتأخرون عن قتله . ثم قال في نفسه

ان هؤلاء الرجال اغنياء واصحاب نفوذ وهم في وطنهم وبين معارفهم . واذا كانوا قد حاولوا اذهاب عقل اختهم فماذا يمنعهم عن محاولة اذهاب عقلي بالعذاب او اخفاء امري الى ان يضيق بي الحال

ولما كانت الشدة تستوجب مزيد الحذر اعمل اسبير بدون الفكرة طويلاً وعلم انه اذا كان من سبيل الى النجاح فهذا وقته بينما هما على الطريق لانه متى تمكنوا من زجه في السجن قبل ان يعلم بامره احد من اصحابه قضي الامر وعجز عن النجاة وادركوا ما يريدون

واذ ذاك ذكر صديقه الاميركي هنري جونز الوارد ذكره في الفصل الاول واراد ان يقابله . ولكن كيف يكون ذلك ؟

الفصل الخامس عشر

في طريقه الى السجن . نجاح الحيلة . هنري جونز وشهامته

بينما كان اسبير بدون صامتاً مفتكراً يدبر الحيلة اخذ موندي يلقي عليه الاسئلة قصد ايقاعه في حبائل نصبها له اخوة اليصابات فقال

— كم من المال اخذت من الانسة اليصابات فيلبس

— لم آخذ منها مالا الا كان حلالاً

— بل اخذت قيمة كبيرة فلا تنكر

— اعلم ياهذا انك خادم الحكومة وليس لك ان تهين الافراد فاعلم ان كنت تجهل انني لست نصاباً ولا شحاذاً وانما انا تاجر

— ولكنك لا تنكر انك اخذت منها مالاً

ـ كلّا وبال اخذته كان قيمة بضائع اشترتها مني

ـ وما اسمك

ـ انت عالم باسمي وهو في الورقة التي معك

ـ ولكن لك اسماء اخرى

ـ لا اذكر ذلك

ـ انا اردّدها الى خاطرك فواحد منها « غزال » والاخر « حبيبي » أليس كذلك

ـ ان كنت استعمل هذه الالقاب فلمقاصدي الخصوصية وانا حرّ

ـ وهل انت متزوج

ـ كلا

ـ بلغني انك بعل امرأة ولك منها اولاد في بلادك

ـ كذب الذي اخبرك

وهنا يليق بنا ان نوضح للقارئ ان اسبير يدون كان قد اتفق مع اليصابات ان ترسل تحاريرها بعنوان « حبيبي » او « غزال » الى البوسطة فكانت تجعل العنوان كهذا

Mr Gazal
Homeedale, Pa

او

Mr. Habibi

وذلك فراراً من سقوط تحاريرها في ايدي اخوتها الذين راقبوا البريد كما ورد في فصل سابق

ثم اراد اسبير يدون الابتداء بالحيلة ليتمكن من مقابلة المستر هنري جونز فعمد الى ملاطفة البوليس فقال

دعنا من هذه المواضيع فهي خطيرة وسيكون لي وللمعتدين عليّ شأن وانا اعلم انك لا تريد ضرري وانما انت مكرهٌ على العمل بصرامة شأن المأمور الامين ولا اشك انك تدرك مركزي الحرج ولا يخفى عليك انني تاجر ابيع السجاد وتجارتي بين خاصة العائلات فالان وقد صرتُ في

قبضتك ولم يكن لي سابق علم بهذا الحادث اخبرك بامر يهمني كثيرا ولا يضر بك ولا يؤخر اتمام واجباتك

— وما هو

— هل تعرف المستر هنري جونز

— نعم فهو اشهر من نار على علم ولكن ما شانه واياك

— لا شأن لي معه خاصة ولكن قرينته من اخص زبايني وقد اوصتني على كمية من السجاد التركي والعجمي ووعدتها ان احضر مطلوبها هذا الصباح فاستوثقت مني ان لا اتاخر وانها تنتظر في انتظاري

— ثم ماذا

— انت تعلم انني عاجز عن زيارتها وانجاز وعدي لها . ولكن ارى من الادب واللياقة ان لا اترك سيدة شهيرة في مقامها العالي منتظرة قدومي بالسجاد على غير جدوى فاريد ان اخبرها انني لاقدر ان ازورها اليوم

— وكيف ذلك وانا لاقدر ان اسمح لك بالذهاب الى منزلها وهو بعيد بين منازل الخاصة

— انا لااطلب ذلك وانما انت تعلم ان ادارة زوجها كائنة على طريقنا فاسمح لي بالنزول هناك لاقابله واساله ان يرسل خبراً لزوجته وهكذا ترتاح ولا تكون انت قد تاخرت عن وظيفتك

— مستحيل ان البي طلبك

— ولماذا وانا لا احاول الفرار . بل انني مستعد لادفع لك اجرة كثيرة قدر ما تشاء لانني اخشى اذ لم اخبرها ان اخسر تجارتي معها

— وما يهمني امر تجارتك

— اذن يهمك امر التادب في معاملة هذه السيدة ويهمك انني ادفع لك اجرة كافية مقابل هذا الفضل

فافتكر البوليس برهة ثم قال

— اظن انه لا مانع من اجابة طلبك فمتى وصلنا تجاه ادارة المستر هنري جونز اسير واياك اليه

ففرح اسبير يدون في قلبه فرحاً عظيماً اذ علم انه سيتمكن من

مقابلة هذا الرجل واخذ رايه في الحادثة . وبقيا في العربة العمومية حتى وصلت بهما جوار المعمل فترجلا وسارا واسبير بدون كما ذكرنا مقيد بالحلقة الحديدية الى يد البوليس وهما يسيران جنباً الى جنب حتى وصلا الى ظاهر معمل المستر هنري جونز تجاه الادارة

وكان الرجل المذكور قد وصل الى ادارته في تلك الساعة وهو واقف خارج الباب يصدر اوامره الى بعض العمال ثم ابصر اسبير بدون قادماً فاسرع الى مقابلته بلطف وحياه التحية الودادية التي عوده عليها . ذلك ان هذا الرجل الكريم مد كلتا يديه الى الشاب السوري مرحباً

اما اسبير بدون فانه مد يده اليسرى فقط قائلا

ــ اعذرني ايها الصديق للاكتفاء بمد يدي اليسرى

ــ وما حال يدك الاخرى

ــ انها في حالتها الحاضرة دون ان تمس يدك الكريمة فان يدي اليمنى يد مجرم وهي كما ترى في الحديد

واذ ذاك انتبه المستر هنري فرأى ان الشاب كان لا يزال لاصقاً برجل آخر وامعن النظر فرأى يده مقيدة فدهش وصاح صيحة الحيرة والاستفكار

ــ ماذا فعل هذا الشاب حتى تعامله هذه المعاملة

وكان البوليس قد انزعج لما راى من انعطاف هذا الرجل العظيم الى الشاب فاجاب

ــ لا ادري ياسيدي وانما انا خاضع للاوامر

ــ ما ذنبه . واي حق لك ان تقيده . وما هو السبب . فانا اعرفه منذ سنوات واعلم انه لا يمكن ان يجني ذنباً يستحق هذه المعاملة

ــ لاادري ياسيدي وكل ما اعلمه انني مأمور

ــ وهل معك امر رسمي

ــ نعم

ــ اطلعني عليه

فارتبك البوليس واطلع الرجل على الورقة

فقال له

ـ من حسن حظك انك اصبت هذا الشاب العاقل الهادي ولو انك حاولت مثل هذا معي لقتلتك في الحال

ـ عفواً ياسيدي فانا غير ملوم لانني غير مسؤول

فقال المستر هنري لاسبيريدون

ـ حسناً فعلت اذ سلمت للرجل بهدو . والان اخبرني ما تعرفه عن اسباب هذه الحادثة

ـ انا اجهل اسبابها واظن في الامر دسيسة من جامس فيلبس واخوته ولذلك جئتك معتمداً على مودتك ومكارم اخلاقك لعلك تقدر ان تضمني فلا اقضي ليلتي في السجن

ـ حسناً فعلت في حسن ظنك بي فاذهب الان معه الى المحكمة وحالما يحضر ابني وليم اسرع اليك مع محاميَّ الخاص لنرى في امرك ولا تخشى شراً فسوف اهتم بامرك اهتمامي بامري الخصوصي

عند ذلك اغرورقت عينا اسبيريدون شعوراً بحسن معاملة هذا الرجل وشكر له كثيرا ثم ودعه وسار مع البوليس ورافقهما المستر هنري الى العربة فلما ركباها قال

ـ لاتخشَ شراً ايها الصديق

ولما انصرف ظهرت على وجه مونسي علامات الغضب ونظر الى اسبيريدون نظرة لها معان وقال

ـ قد خدعتني ياهذا ونجحت حيلتك وادركت مرادك فلم يكن في الامر سجاد ولا سيدات ولو علمت مرادك ماتساهلت معك ولو دفعت لي مليون ريال

ـ ليس معي هذا المبلغ ولكنك لما لم تحمني عمدت الى حماية ذاتي

ـ ولكن هذا لا يفيدك كثيرا فسوف تنال العذاب الاليم وسيحكم عليك بالسجن ١٠ سنوات

ـ الحمد لله ان امري ليس في يدك وانا في بلاد حرة حكومتها عادلة وسانال حقوقي

الفصل السادس عشر

في الحبس

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبسي واي مهند لا يغمد
والحبس ما لم تغشه لدنية شنعاء نعم المنزل المتورد

ونحو الساعة العاشرة صباحاً وصل اسبير يدون الى السجن فادخله مونسي الى مكتب المدير وهناك اخرجوا كل ما في جيوبه من الاوراق والدراهم فاخذها المدير وحاول مونسي ان ياخذ بعض الدراهم الفضية ولكن المدير قال

ـ ابقها معه فربما احتاج الى شيء من النفقة

ـ ولكن المستر جامس فيلبس اوصاني ان آخذ منه كل شيء

ـ لا باس فهذه الدراهم القليلة لا تذكر ولا تضر

ووجد بين اوراقه ورقة كان قد رسم شكل اختراع اراد اتمامه في اوقات الفراغ فلما اخذوها منه طلب ارجاعها اليه فرفضوا . ثم ان مونسي انفرد بالمدير وتحادثا سراً وكان اسبير يدون يسمع بعض كلماتهما وسمع مونسي يقول

ـ ان المستر فيلبس « يشوف خاطرك » وهو يرجوك رجاء خصوصياً ان تضع هذا الشاب في السجن الى الصباح وان تكتم امره عن العموم وخصوصاً كتاب الجرائد

فلاحت دلائل الغضب على وجه المدير وقال

ـ انتم تتطرفون في مطالبكم وتسألون المستحيل وتجهلون انني في وظيفتي هذه خادم للعموم فكل حادث يحدث هنا عليّ ان ادونه في السجل وافتح سجلي لكتاب الجرائد متى ارادوا لانني اسير في نور ولا اخشى شراً

ـ لا يكدرك قولي فانما انا اردد ما اوصاني به مرسلي

ـ لا يهمني امر مرسلك ولا امرك بل اسير بمقتضى القانون في اجراء واجباتي

ثم تحول المدير الى اسبير بدون وامره ان يسير مع سجان كان قد استدعاه فسار معه حتى اوصله الى حيث المجرمين وادخله الى غرفة ضيقة لا نافذة لها الا بابها الحديدي ولا رياش فيها الا سرير خشبي عليه شبه فراش وغطاء والغرفة مظلمة مخيفة خصوصاً للابرياء ثم اقفل الباب وتركه في اضطراب عظيم ولكن على امل من حضور صديقه الكريم المستر هنري جونز

****

في منزل المستر هنري جونز

كانت السيدة الجليلة قرينة المستر هنري جونز صباح ذلك النهار جالسة في مكتبتها تطالع جرائدها وتحاريرها واذا بجرس التليفون يدق دقاً عنيفاً فاسرعت اليه وكان لها هذا الحديث

– هالو . من هذا

= هالو . صباحك سعيد ايتها العزيزة

– صباحك اسعد ايها العزيز ماذا تريد

= اريد ان اخبرك ان صديقنا الشاب السوري اسبير بدون جحا واقع في صعوبة وقد قبض عليه البوليس اليوم

– عجيب وكيف ذلك ولماذا

= لا ادري حتى الان الاسباب وارجح انها دسيسة من بعض اعدائه فارجوك ان تعجلي وليم بالحضور الى الادارة لاتمكن من الذهاب الى مساعدة الشاب

– سارسله حالما يتمكن من الذهاب فانه الان يعتني بابنته التي تشعر اليوم بالم زائد عن العادة

ثم ان السيدة المشار اليها اخبرت ابنها بما ذكره لها والده . وما لبثت ان امرت باحضار عربتها فسارت الى السجن وهناك طلبت مقابلة السجين فلم يسمحوا لها بذلك فعادت الى زوجها اسفة

****

في مكتب المحامي

كان في مدينة بتسبرغ محام اسمه جامس بورت ولد سنة ١٨٤٨ واحرز شهادة القانون وله من العمر ٢١ سنة فهو من ذلك الحين يمارس المحاماة واشتهر في جهات سكنه بالذكاء والعلم والخبرة حتى صار ثقة بين المحامين واتخذه اعظم الاعيان واصحاب الاشغال مستشاراً لمصالحهم القضائية وقد توفي منذ سنوات . وقالت عنه جريدة (البرس) « كان من اعظم المحامين الممتازين خصوصاً في المحاكم الجنائية ثم انقطع في اواخر ايامه الى الاشغال الادارية وله تاليف قضائي خطير »

هذا المحامي كان وكيلا عمومياً لمصالح المستر هنري جونز وكان يوم الحادثة التي نحن بصددها جالساً في مكتبه واذا بجرس التليفون يدعوه فلبى وقال

- من هذا
- انا جونز وارجوك ان تحضر حالاً الى مكتبي
- عندي شغل خصوصي الان ينتهي بعد ساعة
- ارجوك ان تؤخره فحاجتي اليك اعظم
- حسن

وللحال اسرع الى موكله المستر جونز الذي اخبره بما جرى لاسبير يدون وقال له

- امر هذا الشاب يهمني اولاً لاعتقادي انه بريء ثم لانه غريب لا معين له في هذه البلاد واخصامه اغنياء اقوياء فارجوك الذهاب معي الاهتمام بامره واخراجه من سجنه اليوم

وكان ابنه قد حضر فاسرع مع المحامي بورت حتى وصلا الى السجن نحو الساعة الرابعة بعد الظهر فاحضر المحامي ورقة تجيز لهما مقابلة السجين فاحضر اسبير يدون وقابلاها من وراء الحديد فقال المستر جونز

- لماذا سجنوك
- لا ادري

— لا باس فالان يدخل المحامي فحدثه بحقيقة الامر ولا تكتم عنه شيئاً وثق به فهو محاميَّ ويعتني بامرك اعتنائي الذاتي

فدخل المحامي وسار مع اسبيريدون الى مكان منفرد وقال

— ما السبب الذي تظن انهم سجنوك من اجله

— لا اعلم انني جنيت ذنباً الا انني احب الانسة فيلبس وهي تهواني وقد اتفقنا على الزواج فلما علم اخوتها بالامر غضبوا وبدأوا باضطهادي

ثم شرح له خلاصة ما ذكرناه في الفصول السابقة فضحك المحامي كثيراً وقال له

— لا تهتم فالامر ليس خطيراً وساحضر حالا ورقة لاخراجك من السجن هذه الليلة . وفيما بقي فلا تخف شراً مهما كان اخصامك اقوياء فما دام المستر جونز نصيرك تنال الفوز ولا تصاب باذى

وانصرف المحامي فاخذ يبحث في دفاتر السجن والمحكمة فلم يجد اسم اسبيريدون ولا تاريخ صدور الحكم بالقبض عليه . ولا يخفى انه لا يقوى على كفالته الا بعد العلم بمحل صدور الامر فذهب الى روبرت فيلبس احد ماموري المحكمة وقال له

— لماذا سجنتم جحا

— اخي سجنه وهو يستحق اكثر من ذلك وسنرسله الى السجن ١٠ سنوات

— وكيف تفعلون ذلك وانتم لستم الحكومة

— ذلك شاننا وحدنا

— ومن اين استصدرتم الامر بالقبض عليه

— لا اعلم ولو علمت ما اخبرتك

فقضى المحامي مدة في السعي والمخابرات حتى علم اخيراً انهم لمزيد دهائهم لم يأخذوا الامر بسجنه من محكمة المدينة الكبرى بل من قاضي محكمة في آخر البلدة فارسل المحامي رسولاً الى القاضي للاستفهام واخذ صورة الامر فعاد الرسول بالجواب الكافي ولكن كان المساء قد امسى وصارت الساعة السابعة فلم يبقَ سبيل الى اخراج اسبيريدون وكفالته

تلك الليلة وهكذا بقي مسجوناً فزاره المحامي وطيب خاطره ووعده خيراً وقال

ـ سآتيك غداً . والان انبهك الى امر مهم وهو انهم ربما ارادوا اطلاق سراحك هذه الليلة من تلقاء ذواتهم فاذا فعلوا وسألوك الخروج اياك ان تفعل . الزم مكانك وارفض الخروج وقل لهم لا اترك السجن الا عند حضور محاميّ

وهكذا قضى الشاب تلك الليلة في السجن وهو في اضطراب عظيم

الفصل السابع عشر

ماذا جرى لا ليصابات في تلك الليلة

تركنا اسبيريدون يقضي ليله في السجن وسنأتي على ما كان من امره . ونذكر الآن ما جرى لاليصابات فانها لم تكن تعلم بما جرى ولا بما اضمره اخوتها فقضت نهارها مفكرة متألمة حتى المساء فعاد اخوتها ودخل كل واحد منهم غرفته وكانت الساعة السادسة مساء فخرجت الى ظاهر المنزل واخذت تمشي في الحديقة استعداداً لوقت الطعام وكانت تبصر الرجال من كل جانب يراقبونها وهم افراد الخفية الذين استخدمهم اخوتها فلم تحفل بهم لانها علمت ان خطيبها غير آتٍ اليها وانه مسافر من المدينة وفيما هي على ماذكرنا من التأمل اذ فاجأها رجل فظ الطباع شرس الاخلاق عليه كل دلائل التفريط في معاقرة الخمرة وهو احد رجال الخفية فجاءها وقال لها فجأة بلهجة خشنة وقلة احترام

= قد قبضنا على صاحبكِ ولن يفلت بعد الان

فاجفلت المسكينة لهذا النبإ المحزن الفجائي وصاحت به

= اين هو

= هو الان يعض اصابع الندم في السجن في غرفة مظلمة بين المجرمين وقد قبضنا عليه اليوم وقيدناه بالحديد وسقناه في شوارع المدينة واركبناه

العربات على مراى من العموم · ولا اكتمك انه حاول المعارضة والمقاومة فلم يستفد خيرًا وهو الان في السجن فلن ترى وجهه فيما بعد

فاستولى على الفتاة الحزن العظيم ولو لم يكن قد بدأ الليل والمسافة بعيدة عن المدينة لحاولت الذهاب الى خطيبها لكنها رأت ان الاوفق استعمال اللين مع اخوتها فتركت الخفية حيث كان يزيد الازدراء والاحتقار واسرعت باكية الى غرفة اخيها جامس فدخلت وقالت

— ما هذا الذي فعلت ياخي

= فعلت واجباتي للمحافظة على راحة العائلة

— ولكن لماذا سجنته ولا ذنب له . احلالٌ يا اخي ان ترتكب هذا الخطأ وتلحق بذاتك هذا العار . فالشاب بريء لم يسيء اليك

— بل اساء اليَّ واليك والى كل العائلة لما اغراك على الميل اليه وحملك على ترك عائلتك

— اخطأت فانه لم يغرني

= كفى فسوف تبصرين العذاب الذي يقع فيه جزاء جسارته انه شقي شرير وسيبقى مسجونًا

— اخي رحماك اشفق عليه بل اشفق علي· ماذا جنيت· كيف اسأت اليك حتى تجرحني هذا الجرح الاليم فتعامل خطيبي هذه المعاملة التي يصل كل تاثيرها اليَّ · انت تعاقبه لانني احبه فهل هذا ذنبه · انني احبه واهواه ولو لم يحبني فانا المذنبة لا هو

وظنت اليصابات انها بقولها هذا تلين قلب اخيها اما هو فانه ازداد حنقًا وصاح بها شتمًا وتكديرًا ثم قال

= اصمتي ولا تلفظي كلمة واحدة بعدُ في هذا الموضوع او امدُّ يدي اليك بسوء

اما تهديده هذا فلم يخيفها بل افتكرت فقط بحال خطيبها وقلقه فلم تحفل بما ينالها من الاذى وجثت امام جامس ضارعة اليه ان يرحمها ويطلق سراح اسبير بدون ولكن قلبه القاسي لم يتأثر فصرفها صرفًا سيئًا. ولما اعيتها الحيلة ذهبت الى كل واحد من اخوتها في غرفته وتوسلت الى

كل واحد منهم بدوره ان يساعدها و يرحم حزنها و يشفق على حالتها وكانت تبسط اليهم الرجاء باكية متوسلة متذللة شأن المرأة التي ملك الحب فؤادها فلم يبق لها صبر ولكنهم صرفوها كما صرفها جامس

فلما رأت ان لا خير يرجى من اخوتها عللت النفس بالآمال وذهبت الى مونسي وهو الخفية الذي قبض على اسبير بدون فقالت

– يامستر مونسي اتوسل اليك واستعين بشهامتك ان تخاطب اخوتي في امر المستر جما واطلاق سراحه فهو بريء من كل ذنب ولو انك تعلم الحقائق شفقت على حزني وساعدتني

– قد اخبرني المستر جامس الحقيقة فارى الحق في جانبه ولذلك لا اساعدكِ فلا تنتظري مني ما لم يفعله اخوتكِ لانني عاجز عن مساعدتكِ بل لو قدرتُ ما فعلت

– ولكنك تجهل حقيقة الامر وانما علمتَ ما اوحاه اليك اخي

– لا اريد ان افهم غير ذلك

واذ ذاك جاء جامس فقطع حديثهما قائلاً بلهجة عنيفة

– كفي عن محادثة مونسي فهو قد تعب كثيراً اليوم ويحتاج الى راحة وهو ذاهب الآن الى غرفته لينام

واذ ذاك ذهب مونسي قاصداً غرفته فصاحت به اليصابات

– انك تذكرني بشا كسبير يامستر مونسي

فالتفت اليها الرجل وهو لم يفهم مرادها وقال

– ماذا تقولين

– اقول انك تذكرني بشا كسبير

– وما هو الذي تذكرينه

– اذكر قوله

Thou wouldst have money

فازداد كدر مونسي وظلّ سائراً وقد قال بصوت اجش

– سأريكِ ماذا اطلب

وهكذا انصرف كل واحد من اخوتها وافراد البوليس الى غرفته

وتركوا الفتاة وحدها تناجي همومها وتضطرب ذاكرة ان حبيبها يقضي ليله في السجن

****

مضت ساعة على اليصابات وهي مضطربة قلقة تارة تبكي وطوراً تعزم ثم لا ترى سبيلاً الى الخلاص وهي يومئذٍ لا تعلم من امر حقوقها شيئاً ولا تدري ان اخوتها ظلموها وتجهل الطرق المؤدية الى كبح جماح معاملتهم هذه ثم انها قد سلمت امورها الى جامس فتولى زمام مصالحها فلم تعلم ما عليها وما لها فكانت تثق بكل اقوالهم وتصدق كل تهديداتهم

وفيما هي على ما ذكرنا فتح باب غرفتها ودخل شقيقها وليم وكان يحبها محبة عظيمة فجلس امامها وامسك يديها وقال بصوت خنقه البكاء

– عزيزتي اليصابات انكِ في خطر عظيم ولا سبيل الى نجاتكِ وخلاص المسترجحا الا بواسطة واحدة

– وما هي

– هي ان تكتبي جميع املاككِ واموالك الخاصة والعامة من مال وعقار و بيوت واسهم لاخي جامس واذ ذاك يطلق سراح اسبير بدون ولا يصاب باذى

– وكيف ترجو مني ان افعل كل ذلك . ولماذا افعل . هذه الاموال والاملاك حصتي الخاصة ولا تزيد عن حصة كل واحد منكم . وفضلاً عن ذلك فان املاكي واموالي معطاة لي من والديّ وهي حقي الصريح فكيف اتنازل عنها بدون سبب . ولو انها منكم او من احدكم لتنازلت عنها حالاً ولكن لا ارى سبيلاً الى ترك حصتي

فاخذ وليم يبكي كالطفل ويلحّ عليها ان تفعل . فلما اصرّت على الرفض قال

– انت تجهلين ايتها العزيزة الخطر المحيط بكِ والمصاب الذي يتهددكِ . فانا انصح لكِ نصيحة اخ محبّ ان تتنازلي عن حصتكِ لجامس او تندمين ندماً عظيماً واؤكد لكِ انه متى ازف الوقت فان جامس يعيدها لكِ كاملة . واعدكِ بشرفي انه اذا لم يفعل فانا وروبرت

نعيد اليكِ قيمتها وانما اريد منكِ الان ان تعدلي عن عنادكِ لانقاذ نفسكِ من الخطر العظيم المعد لكِ وله ·

– لا افعل ولن افعل لانني صاحبة حق

– اذن يبقى امبير بدون في الحبس بل ينقل الى سجن الاشغال حيث يبقي ١٠ سنوات وهناك يمارس صنع الاحذية نظير سائر المجرمين

فاضطربت اليصابات لهذا التهديد وخشيت ان يستطيع اخوتها الحاق كل هذا الاذى بالرجل الذي تهوى وقضت الليل في اضطراب

الفصل الثامن عشر

ماذا جرى لاليصابات صباحاً

اصبحت اليصابات في اليوم الثاني ضعيفة القوى الجسدية مضطربة في قواها العقلية لانها لم تكن قد ذاقت الطعام ولا المنام · واخذت تراقب حركات اخوتها لتعلم ما يكون من امرهم · وفيما هي واقفة في جانب من القاعة وجامس لا يراها او يتظاهر انه لا يراها سمعته يقول لمونسي

– اياك ان تتركها · وهوذا العربة على الباب · خـذها حالاً · فاذا عارضت خذها قهراً ولو اضطررت الى استعمال العنف والقوة

وسمعت اليصابات هذه الاوامر الصارمة فقالت في نفسها

– انهم مصرّون على أخذي · ولا ادري الى اين · ولهم القوة وانا ضعيفة بين ايديهم فالاوفق ان لا امانع اذ لا فائدة من المعارضة

وبعد قليل اجتمع اخوتها في القاعة ودعوها فقال جامس

– انتِ تعلمين الان ان هذا الشاب الذي اخترتِ التعلق به قد زُجّ في السجن وانه قضى ليله هناك · وقد اظهرتِ في تصرفك ضعفاً عظيماً ونحن نعلم ان الرجل شرير قد غرّه مالكِ وثروتك واملاككِ فلا بد ان نحافظ على سعادتكِ وراحتك بحفظ حصتكِ سالمة من اعتدائه وطمعه وجهلكِ ولما كنتُ انا كبير العائلة اطلب منكِ ان تنقلي اليَّ

بطريقة قانونية جميع املاكك وعقارك ومالك النقدي الموجود باسمك في المصارف وجميع الحصص والاسهم في جميع الشركات

– هذا جنون وطلب مستحيل وظلم فاضح وانا في سن الرشد والمال مالي الخاص فلا افعل

–اعلمي انك اذا لم تفعلي ما اقوله الان فاننا نبقي جحا في السجن عدة سنوات يمارس الاشغال الشاقة ثم متى خرج ارسلناه الى وطنه شأن المجرم الذي لا يجوز له ان يبقى في هذه البلاد ويمنع من الرجوع اليها كل حياته

فتأملت اليصابات برهة وصدقت وعيدهم وتغلب حبها لاسبير بدون على كل مالها وثروتها فقالت

– واذا فعلتُ فهل يخرج من السجن حالاً

– نعم يخرج الان

– اذاً افعل وامضي معكم على هذا الشرط

وهكذا اركبوها العربة وساروا بها الى المدينة حتى وصلوا الى مكتب المحامي ديكي وقد اتفق مع اخوتها واحضر اوراق التنازل واعدها كما شاء وشاء اخوتها

فلما قابلها المحامي اخذ في تحو بفها تكراراً ثم قال

– اخوتك قد عاملوك افضل معاملة وهم الان بحجر املاكك يحرصون على راحتك ومصلحتك

ثم قدم لها الاوراق لتمضي عليها فقالت

– انني مستعدة ان امضي هذه الاوراق التي لا اعلم ما فيها ولا كيف كتبت وكل ما اطلبه مقابل عملي ان تسمحوا لي ان اراه قبل ذلك

فقال جامس

– هذا مستحيل

وقال وليم

– لا يمكن ان نسمح لك بما تريدين . هل فقدت كل عقلك كيف تذهبين الى الحبس . كيف تدخلين الى محلات المجرمين . وكم

يضحك الناس وكم تهزأ بكِ العائلات

– تقولون انكم تفرجون عنه . اذًا عدوني ان اراه هذا الصباح فقال المحامي

– لا باس ان تراه هذا الصباح بعد ان تضع توقيعها

وقال جامس

– لا مانع عندي شرط ان لا تكلمه

فقالت اليصابات

– اكتفي ان اراه

« في تلك الساعة ختمت اليصابات فيلبس عقد خطبتها ومودتها »
« لاسبيريدون جمحا بخاتم ذهبي ثمين . اذ ذاك اكدت له »
« وللعموم ان حبها لخطيبها اعظم من كل ثروتها واذ ذاك »
« تنازلت عن الالوف المؤلفة من الريالات والافدنة المتعددة »
« من الارض والاسهم الكثيرة الثمن والحصص البالغة في »
« سبيل سلامة من تهواه . اذ ذاك ظهرت هذه الفتاة بمظهر الشهامة »
« والفضيلة . ووضعت توقيعها على الاوراق وخرجت من »
« مكتب المحامي فقيرة لا تملك ريالاً واحدًا . ولكن في قلبها »
« مودة رجل تهواه وتثق به وهي ذاهبة لتراه – ذاهبة لتنقذه »
« من خطر . لتخرجه من السجن »

الفصل التاسع عشر

ماذا جرى لاسبيريدون صباحًا

نترك اليصابات ذاهبة من مكتب المحامي الى السجن لترى خطيبها وتخرجه من سجنه ونعود الى ذكر ماجرى له

ففي ليله في السجن مضطربا لا يعلم ما يكون في الغد ولكن ثقته من براءته جعلته واثقاً بالخلاص . فلما اصبح الصباح جاءه السجان واخرجه وسار به الى غرفة المدير فقال له

- ارجو ان لا تكون قد تعذبت كثيراً في الليل والآن فهوذا جميع اوراقك ودراهمك وجميع ما اخذته منك امس بعاد اليك

و بعد ان سلمه كل ذلك اشار اليه ان يدخل غرفة مجاورة فدخل اسبير يدون وهو لا يعلم من هناك

فتصوَّر ايها القاري مزيد دهشته اذ رأى في الغرفة جامس فيلبس واخويه ومحاميهم وموتسي وسائر رجال الخفية وعدداً من كتَّاب الجرائد ثم راى اليصابات جالسة في اقصى الغرفة ومعها الخادمة فحالما دخل وراى القوم دهش ولكنه تقدم الى اليصابات التي ما لبثت ان نهضت من مجلسها وسارت امام ذلك الجمع فمدَّت اليه كلتا يديها مرحبة وصافحته بمزيد الحنان واللهفة وقالت بصوت سمعهُ الجميع

- انني حزينة لما اصابك

فشكر لها غيرتها واراد ان يجلس بجانبها فغضب جامس واوعز الى حنة ان تجلس بينهما

فقالت اليصابات

- يا جامس لا تسيء التصرف

- ابعدي هذا الرجل عنكِ

وقالت حنة

- نعم هو شقي لا يستحق ان يجلس بجانبكِ

ومع ان اسبير يدون ادهشه تصرف الخادمة وانقلابها عذرها اذ ادرك الاسباب ولكنه وجه خطابه الى اليصابات وقال

- كيف صحتكِ ارجو ان لا اتكدري لما جرى

فصاح به جامس

- اصمت فلا حق لك ان تحادثها

— حقي مساوٍ لحقك بل هو اعظم

واذ ذاك دخل المستر بورت المحامي عن اسبيربدون واوعز اليه ان يتبعه فظن الشاب انه مدعوٌ الى الجلسة لمحاكمة ولم يعلم انه صار حرًّا فترك الغرفة على امل الرجوع ومقابلة خطيبته اما المحامي فاخذه الى مكتبه فقال اسبيربدون

— اين انا والى اين ذاهب واين المحكمة ومتى المحاكمة

— لا محاكمة ولا حكومة فانت حرٌّ

— ولكن كنت معها وقابلتها بعض الانتظار الطويل ثم تركتها بدون وداع ولا سلام

— لم اعلم انها الانسة فيلبس اذًا فارجع اليها

فاسرع اسبيربدون الى غرفة السجن ليراها ولكن لم يجدها وقيل له انها بعد خروجه ركبت عربتها مع اخوتها وانصرفت فكان كدره عظيماً جدًّا ولكنه عاد الى مكتب المحامي فوجد كتاب الجرائد ينتظرونه فذكر لهم خلاصة الحوادث واسبابها وحكى لهم عن المكتوب الذي فتحه جامس واخذه من ادارة بريد هومسدايل فقال المحامي

— اصحيح ما تقول . ان في هذا ما تهتم له الحكومة الاميركية

وللحال سار به المحامي الى ناظر بوسطة بتسبرغ العام واطلعه على ما جرى فاخذ المعلومات الكافية واستفهم بواسطة التليفون من بوسطة هومسدايل عن اسم الفتاة التي سلمت التحرير وكتب كتاباً رسمياً الى جامس يكلفه ان يحضر لمقابلته

اما اسبيربدون فلما وجد انه صار حرًّا انصرف في سبيله وسار الى المستر هنري جونز فشكر له اهتمامه به . وجاءه الكتاب الاتي من الانسة اني كونراد رئيسة مدرسة الاحد في كنيسة بتسبرغ الكبرى وفيه دلالة على منزلته ومقامه

بتسبرغ في ١٢ (يونيو) حزيران سنة ١٨٩٦

حضرة المستر جحا

ساءني جدًّا ما قرأته في جريدة الليدر يوم الجمعة عما نالك من

الصعوبات والاضطهاد ولكن عدتُ فسررت اذ قرأت امس ان عذابك انتهى فانني منذ عرفتك لم اجد منك الاَّ ما يدلّ على انك شريف الاخلاق مسيحي المبادي فادعو لك بمستقبل سعيد هنيء

صديقتك

اني ا . كونراد

وهذا تعريب خلاصة ما ورد في جريدة بتسبرغ ديسباتش بهذا الشان بتاريخ ٤ (دليسمبر) كانون الاول ١٨٩٦

« اسبير يدون جحا السوري موجود الان في السجن وكل ما يحيط بدعواه مكتنف بالظلمة والسرّ فهو لا يعلم لماذا سجن الا اذا كان لانه يهوى فتاة غنية من بنات القسم الشرقي وهو قسم الاعيان وهي تحبه . وجميع الذين لهم علاقة بحبسه لا يقولون شيئاً وكل ما امكن الوقوف عليه من الامر الصادر بحبسه هو « ان اسبير يدون جحا المعروف ايضاً باسم باتريك جونز وايضاً باسم ه . ت . غزال متهم بدسيسة » والمدعي عليه هو جامس فيلبس ومامور الاوراق ملازم الصمت والكتمان . اما جامس فيلبس المدعي فيقيم في المنزل الكولوني القديم في افنيو فيلبس على سكوربل هل وهو منزل فخيم قديم وتقيم معه اخته وهي فتاة حسناء لها من العمر ٢٢ سنة ويقال انها تحب الشاب السوري وهو فتى جميل الوجه اسود العينين اسود الشعر ذاك الشكل الذي يستوجب المحبة من كل فتاة تراه ولما وُضع الشاب في السجن طلب المدعي من المدير ان يكتم الامر عن الصحف فانكر عليه ذلك وقد تولى المحاماة عنه المحامي بورت المعروف الذي يقول ان التهمة غير قانونية . ولا يخفى ان المستر ميتشل الذي اصدر الامر بحبس الشاب حديث العهد في وظيفته فلا يعلم واجباتها »

اما السبب في خروج اسبير يدون من السجن فلم يكن حقيقة ما توهمته العصابات من انه حصل بارادة اخوتها لان جامس اسقط دعواه عن اسبير يدون لما رأى ان الامر وصل الى الجرائد وان محامي الشاب مشهور وله انصار مثل المستر هنري جونز فقالت جريدة الديسباتش

« امس انتهت الدعوى على اسبير يدون جحا فجأة وقال جامس فيلبس ان الامر انتهى باتفاق متبادل واما جحا فلا يعلم شيئاً من امر ذلك الاتفاق وكل ما يعلمه انه أُخرج من السجن وقيل له انه حرّ »

الفصل العشرون

مخابرات وجلسات مع اخوتها

غير خافٍ ان جامس فيلبس انما وضع اسبير يدون في السجن ليلة واحدة بدون حق وبطريقة غير قانونية كما ظهر للقارئ وكان في نيته ان لا يخرجه منه لولا ان الشاب استجار بالمستر هنري جونز وهكذا تعلم ان له الحق بعد خروجه ان يرفع دعوى على جامس فقابل المحامي بورت وفاتحه بالامر فنصح له ان يداعي الرجل و يطالبه بعوض مالي لا يقلّ عن ٢٠ الف ريال فقال الشاب انه راضٍ بالاقدام على ذلك ولكنه يريد اولاً مكاتبة اليصابات ليرى رايها قال المحامي اكتب لها ما يجول في خاطرك

فكتب اليها اسبير يدون تحريراً وارسله بواسطة مدير البوسطة فلم يرد جوابه فعاد وارسل تحريراً آخر مع رسول خاص واقام ينتظر واذا بالبريد يحمل له الرسالة الاتية ترجمتها

بتسبرغ في ٧ (دىسمبر) كانون الاول سنة ١٨٩٦

المستر اسبير يدون جحا

سيدي العزيز

ارجوك ان توافيني الى منزل اخي وليم في ٦٢٠ كليفلاند افنيو الساعة ٢ بعد الظهر من يوم الثلثا ولا ينالك اذى كتبته

اليزا ب . فيلبس

هذا التحرير جاءه عن يد مدير البوسطة ثم جاءه تحرير آخر من اخيها وليم يسأله زيارته فذهب في الوقت المعين وسار معه بعض اصدقائه من السوريين حتى اذا وجدوه في خطر دافعوا عنه فدخل

المنزل واقاموا خارجاً ينتظرون فوجد اليصابات واخيها وليم وقرينته بانتظاره . وكان جامس وروبرت ورجال البوليس في الطبقة العليا وجامس يحاول النزول للاعتداء على الشاب وهم يمنعونه فبعد ان سلم وجلس قال وليم

— لا شك انك تريد ان تعلم السبب الذي من اجله دعوناك

— نعم اريد ذلك

— اذاً فاعلم ان ما سبق وجرى لك مع اختي اليصابات انما كان عن طيش الصبا والجهل فالان اريد منك ان ترد اليها جميع تحاريرها وهداياها وهي تردّ اليك تحاريرك وهداياك ثم تفسخ الخطبة ويمضي كل واحد منكم في سبيله

— لا ارى وجهاً لاجابة طلبك وانت لا شان لك في ما هو جارٍ بين خطيبين وانا ارفض فسخ الخطبة وارجاع او استرجاع شيء من التحارير والهدايا الا اذا كان ذلك مراد الانسة اليصابات واذ ذاك لا اعارض

— هذا ما تريده هي بالذات وانا اقول ذلك بلسانها

— اسمح لي ان احادثها في خلوة مدة ٥ دقائق ثم افعل ما تريد

— هذا غير ممكن

— ورضاي بما تطلب اذن مستحيل

اخيراً قالت اليصابات بلهجة المضطر

— اريد فسخ الخطبة موقتاً

قالت هذا واشارت بعينيها انها غير راضية

فعلم اسبيريدون انها مضطرة واراد ان يزيل اضطرابها و يساعدها على الراحة مع اخوتها فقال

— اذاً اعد ان اعيد بعض التحارير

وهكذا انصرف وهو ينوي ان ينجز وعده لكنه لما قابل المحامي بورت عدل عن عزمه وقرر رفع دعواه على جامس

و بعد ايام قليلة جاءه التحرير الاتي من اخيها

المستر س . جحا

انا موجود في بيتي ٦٢٠ كوبلاند افنيو وحسب الاتفاق احضرت كل شيء فاحضر وانا انتظر واساهتم في ان يكون استقبالك حسناً فلا يساء اليك

الداعي

وليم فيلبس

فذهب اسبير يدون الى منزل وليم وهذا عاتبه على اخلافه الوعد فقال

– لا ازال انوي ان انجز وعدي على انني لم اضرب الانجاز موعداً معلوماً فاعلم انك اذا سمحت لي بمحادثتها ولو ٥ دقائق على حدة املك كل شيء

– اجتماعك بها مستحيل وانا ارفض اجابة طلبك

– اذن انا ارفض ايضاً

فنهض وليم غاضباً وصاح به

– يا جحا قد تلاشت كل ثقتي بك

– ذلك لا يضرّني

– مثلك يجسر ان يعارضني

– اذا كان في حفظ كرامتي وحقي فاجسر على اكثر من ذلك

قال هذا وخرج وقد قرّر قطع المخابرات معهم ورفع الدعوى على جامس

الفصل الحادي والعشرون

دعواه على جامس وتحرير من اليصابات. استخدام جورج

ذهب اسبير يدون راساً الى المحامي بورت فلما دخل عليه قال

– قررت رفع دعواي على جامس فيلبس بمبلغ ٢٠ الف ريال تعويضاً عما فرط منه من الاساءة اليّ

– حسناً فعلت وانا اتولى امر دعواك واضمن لك النجاح

ثم ان المحامي خاطب المستر هنري جونز بالتلفون فقال

– قد سلمني الخواجا جحا دعواه على جامس فيلبس وتوليت امرها فما رايكم

– حسناً فعل وحسناً فعلت ويسرّني ان جحا يطالب بحقه والتعويض اللازم. فهنئه عني سلفاً وابلغه دعائي له بالنجاح وقل له ان يعتمد عليّ

في كل معونة يحتاج اليها

فلما بدأت الدعوى على جامس هال امرها الرجل لعلمه انه مخطئ واخذت الجرائد تنقل اخبارها وتفاصيلها

وكانت اليصابات تتبادل وخطيبها التحارير بطريقة توفقا اليها وهي شهامة رجل اسمه جورج . اما كيف حصلا على مساعدة هذا الرجل فاليك بيانه

كان لاسبير يدون واخيه محل تجاري في بتسبرغ وكان المحل كبيراً جداً فجاء رجل اميركي اسمه دوفر واستأجر من اسبير يدون جزءاً من الدكان وجعله مركزاً لاشغاله التي كانت اعداد المراكز لطالبي الاشغال . ولما تعدد اجتماع اسبير يدون بالاميركي دوفر علم هذا ما كان من امر حوادثه فال اليه طبعاً وحدث ذات يوم ان احد رجال الخفية الذين استخدمهم جامس واسمه جاك جاء مكتب دوفر وسأله عن رجل يستخدم معهم في مراقبة اليصابات واخبره جاك بحديث الفتاة وحالتها وانه يحتاج الى رجل يساعدهم وان العمل غير شاق . وكان جاك يجهل ان دوفر يعرف اسبير يدون و يوده اما هذا فعمد في الحال الى استدعاء رجل اسمه جورج كان يثق به وارسله في هذه الوظيفة وشرح له الحقيقة وسأله ان يسعى في صالح الفتاة وعاشقها

فلما قضى جورج مدة في منزل فيلبس وكان يقوم بوظيفة مراقبة اليصابات شعر بميل الى مساعدتها اذ تأكد انها مظلومة فتظاهر بالخشونة في معاملتها و بالشدة والتدقيق في مراقبتها ثم حاول محادثتها وهي نافرة منه لا تعلم ما يريده من الخير لها . وكان يتاخر عن الحضور الى الطعام قصداً حتى يخلو له الجو فيقابلها وحدها فلما قابلها مراراً واظهر لها انه صديقها وهي تنكر عليه ذلك خوفاً قال لها

— ارسلي معي رسالة الى حبك تظهر لك صحة مقاصدي

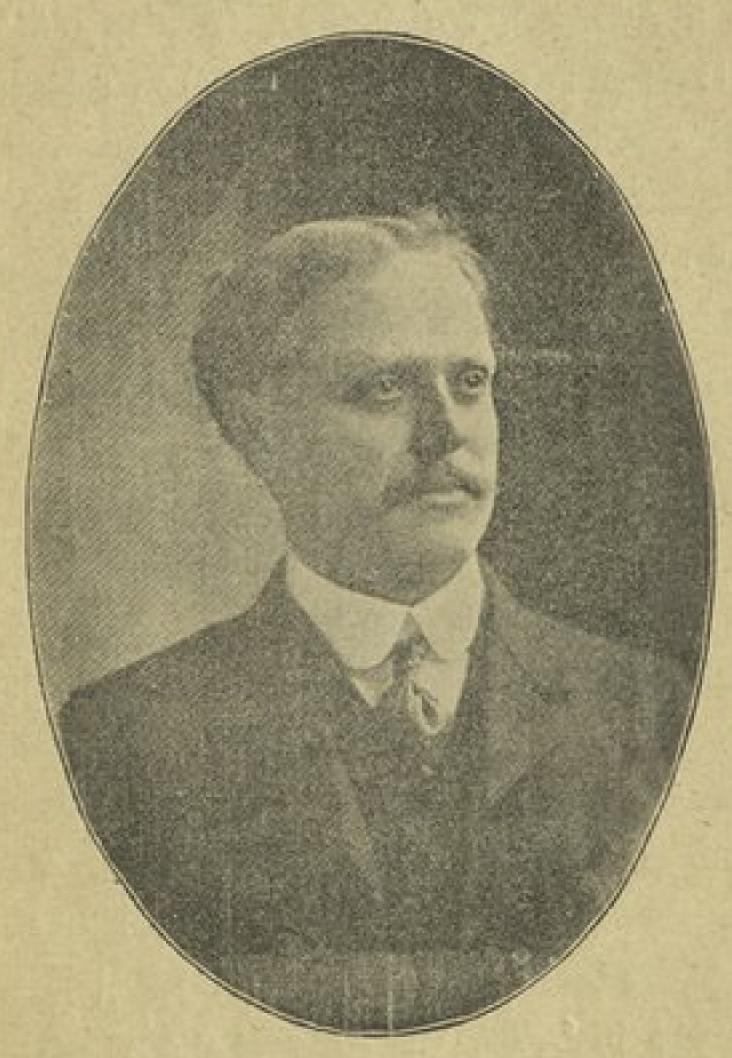
واخيراً رأت ان تمتحنه فسلمته كتاباً بسيطاً جداً واذ ذاك اجتمع به اسبير يدون وصادقه وشكره على شهامته واحسن اليه بما زاد الرجل ميلاً فصار رسول العاشقين الامين من ذلك الحين

ومما يذكر ان الخادمة دينا لما رات مولاتها تحصل على تحارير ولا تعلم باية طريقة سألتها ذات يوم من اين تصل اليكِ التحارير

فاجابتها اليصابات هازلة

– يأتيني بها الرجل الصغير في جوف الارض

فاسرعت دينا واخبرت جامس بما قالته لها فظنوا لشدة خوفهم ان اسبيريدون يأتي الحديقة ليلاً ويضع التحارير في حفر من الحديقة فاخذوا مع البوليس يفتشون وينبشون واليصابات تضحك في سرها عليهم



رسم مأخوذ هذه السنة

لجناب الشيخ اسبيريدون جحا · بطل هذه الرواية



رسم السيدة اليصابات فيلبس جحا

سنة ١٩٠٥

وقرأت اليصابات في الجرائد خبر رفع خطيبها دعواه على اخيها وعلمت انهم من بعد ذلك يزيدون في عذابها و يشددون عليها عن مقابلته ويصعب عليها ان تراه فكتبت اليه ما يأتي

بتسبرغ (دسمبر) كانون الاول سنة ١٨٩٦

عزيزي اسبير بدون

علمت من جريدة الديسباتش الصادرة يوم السبت انك بدأت دعواك على اخي طالباً التعويض فارجوك ان تسحب الدعوى . كل شيء ينتهي على خير في المستقبل . ثق بالله فنصل الى الطريق القويم حالاً . لا اقدر ان اراك الان ولكن افعل ما اقوله . اسحب دعواك . امتنع عن المطالبة . انا اعلم انك صاحب حق وحقك ظاهر ولكن دعواك توجب لي عذاباً . انت لا تعلم ما انا فيه . ان الخفية المسمى جاكوب تردد مراراً على منزل حنة واخذ كل قراراتها وقرارات دينا وسيوجب لها تعباً . عزيزي – اذكر التي تحبها . وسارسل تحريراً في الاسبوع القادم اوضح فيه كل شيء . اما ظنك انني امضيتُ ورقة تعهدتُ فيها بقطع العلاقات معك فغير صحيح وانما امضيتُ ورقة اعطيت فيها كل اموالي واملاكي ولم اكن لافعل ذلك لولا ان اخوتي قالوا انهم لا يخرجونك من السجن ابداً . سارسل هذا التحرير مع جورج فافعل ما اوصيك به اسحب دعواك عن اخي . و يقول لي المستر دبكي المحامي ان اكراههم لي على ترك اموالي كان بحضور شهود ولذلك اقدر يوماً ما ان استردها او يتهمون بدسيسة وخيانة . لا تصدق اقوال الوشاة ايها العزيز فانا احبك واحبك واكرر انني احبك ولا احب سواك . ولا يمكن لاحد ان يحول بيني وبينك . يمكنهم ان ياخذوا مالي واملاكي وجسدي وصحتي ولكن يعجزون عن قطع قلبي ومنعه عن الميل اليك فاسحب الدعوى . احرق هذا حال وصوله حتى لا يعلموا به فانهم لا يسمحون لي بالكتابة

الصادقة في محبتك . اليصابات

وقد صدق ظنها الظاهر في تحريرها فان اخوتها زادوا في التضييق عليها وتعذيبها اذ علموا انها لا تزال تهوى الشاب السوري وتخابره

و بلغ من تضييقهم عليها انهم وضعوا عدة من الرجال في المنزل ليلاً نهاراً للسهر والمراقبة وجعلوا الخادمة دينا تنام في الغرفة المجاورة لغرفتها فلا تستطيع ان تاتي بحركة لا يراها الرقباء حتى انها كانت تكتب التحارير

في بيت الحمام واخيراً لما اظهر جورج لها انه صديقها وجعلت تعتمد عليه جاءها ذات يوم قائلاً

– انصح لكِ ان تهربي حالاً

– ولماذا

– لان اخوتكِ يضمرون لكِ الشر

– واي شرّ فوق الذي فعلوه فقد سلبوني كل ثروتي وحرّيتي وانا سجينة هنا

– يوجد شر اعظم

– وما هو

– اخشى ان اقوله . فقد سمعتهم يحدثون بعض الخفية انهم ينوون اخذكِ الى مأوى المجانين بدعوى انكِ معتوهة

– ولكن كيف اتمكن من الفرار وهؤلاء الرجال يراقبون كل حركاتي

– اتركي الامر لي فانا اذهب بهم الى الغرفة الخارجية واحضر زجاجة من الشراب واشغلهم بلعب الورق ساعة او اكثر واذ ذاك يخلو لكِ الجو وتهربين

فعظم الامر على الفتاة وخافت خوفاً عظيماً وقرّرت العمل بمشورة جورج فخرجت في الوقت المعين واذا بالخادمة دينا قد عارضتها قائلة ماذا تريدين

– كنت خارجة لآتي بشربة ماء

– الماء في غرفتكِ فلا تخرجي

فاقامت برهة ثم نادت دينا وقالت

– اريد ان امشي مسافة للنزهة

– لا اقدر ان اسمح لكِ فان اوامر سيدي صارمة ان لا اتركك وحدكِ

– اذن فاذهبي معي

– الى اين

– الى الحديقة

وما لبثت ترجوها وتحتال عليها حتى سارت معها فاسرعنا حتى خرجتا من الحديقة واذ ذاك اجفلت الخادمة وتوقفت قائلة

— الى اين من هنا

— الى الفرار من هذا المكان . من هذا السجن

— ويلاه ماذا يحلّ بي

— لا شيء اذا كنتِ حكيمة فسيري معي وانا ابقيكِ في خدمتي

اما دينا فحاولت الرجوع فقالت اليصابات

— لا فائدة لكِ من الرجوع الان لانكِ ترجعين وحدكِ وتلاقين وبنالكِ من غضب جامس فالاوفق ان تسيري معي

وهكذا سارتا عن الاكمة الى بتسبرغ والطرق وعرة والاشجار غضة والهارب كثير الخوف من كل حركة واخيرًا عجزت دينا عن المسير فتركتها اليصابات وسارت وحدها هائمة على وجهها هاربة من جور اخوتها حتى وصلت الى منزل المستر سكوت نسيبها فاقامت لديه

ولا تسل عن اضطراب اخوتها لما علموا انها تركت المنزل فملأوا البلاد استفهامًا حتى علموا انها لدى مسز سكوت فاطمأن خاطرهم

****

الفصل الثاني والعشرون

سفر وبعاد وحوادث

اقامت اليصابات الان مع مسز سكوت متمتعة على الاقل بالراحة القليلة متخلصة من شراسة اخوتها وسوء معاملتهم ولكن نفوذهم ظل قويًا عليها وبواسطة مسز سكوت وزوجها جعلوها اسيرةً في ذلك المنزل ايضًا فلم يسمح لها بالخروج وحدها . وكان اسبيربدون قد اهدى اليها سجادة صغيرة صنعها بيده ونسج في وسطها مثال الشمس وعلى كل من جانبيها طيرٌ اشارة الى نور الامل وجعل تاريخ سنة ١٨٩٥ منسوجًا عليها بالانكليزية والعربية ثم حاك في الجانب الاعلى منها بالحروف الانكليزية

اوائل حروف اسمه واسمها هكذا S. E واتصل هذه الايام باخوتها خبر السجادة وما كتب عليها فعمد المستر سكوت الى تمزيق الحرفين ذلك انتقام العاجز ظناً من القوم انهم اذا مزقوا الحروف فقد فصلوا بين اميال العاشقين

ثم لما انقضت مدة طويلة وهي مصرة على ميلها الى الشاب لم يروا اوفق من ابعادها عنه فاخذوها الى جهات الجنوب وسار معها شقيقها وليم وامرأته . اخذوها من منزل سكوت سرًّا وابلغوا الجرائد انها سافرت الى اوربا للنزهة قصد ان لا يدري اسبيربدون بمحل وجودها فهزأت الصحف بهم وقالت الديسباتش في مقالة مطوّلة عن هذه الحادثة « ان عائلة فيلبس اخطأت في اخذ الفتاة الى اوربا اذا كان مرادهم ابعاد عاشقها السوري عنها فهو في اوربا اقدر على مقابلتها واخذها منه في هذه البلاد »

اما اسبيربدون فعلم الحقيقة ولما راى انها سافرت عاد الى ممارسة اشغاله منتظراً ما يكون من حوادث الاقدار

فلما كان ذات يوم في كرينسبرغ جاءه منها الكتاب الاتي بدون تاريخ ولا امضا

عزيزي اسبيربدون

انا الان في الجنوب وهذه اول فرصة قدرتُ ان اغتنمها لاخبرك عن محل وجودي . ارجوك ان لا تجاوب على هذا . صحتي حسنة وارجو مثل ذلك لك . لا تطلع احداً على تحريري وارجو ان اراك عن قريب . انت تعلم ان هذا التحرير مني ولو لم اضع توقيعي . لا تجاوب فان جوابك يسبب لي عناءً عظيماً

ثم اخذت تراسله مراسلات قليلة حتى اذا كان ذات يوم في كليفلاند جاءه كتاب منها من بتسبرغ تفيده انها عادت الى المدينة وانها مقيمة في منزل سكوت واذ ذاك تبادلا عدة تحارير ثم اتفقا على الاجتماع فاجتمعا ولما رآها لم يعرفها لما طرأ على صحتها من التغيير فانها سقمت وصارت نحيلة ضعيفة منهوكة القوى وفي غضون هذا الاجتماع قررت ان تقفي الامر وان تزف اليه وتمضي معه ولكن اخرت ذلك ريثما تسترجع املاكها

الفصل الثالث والعشرون

دعوى اليصابات على اخيها

بعد ان اقامت اليصابات مدة عند سكوت وارتاحت من شراسة اخوتها عمد هؤلاء الى استخدام صهرهم المذكور رسولاً بينهم وبين اسبيربدون ليحملوه على قطع علاقاته مع اختهم . واراد اسبيربدون استرضائهم حتى لا يزيدوا في معارضتها فارجع اليهم عن يد سكوت بعد التحارير والهدايا ما عدا خاتم الخطبة فانه حفظه وارسل آخر من شكله كما ان اليصابات فعلت مثل ذلك

ثم ان اليصابات قابلت المحامي جون برون من مكتب مشهور و بواسطته رفعت دعوى على اخيها جامس طالبة استرجاع املاكها واموالها المأخوذة منها بالحيلة . وهنا ننشر ترجمة النتيجة الانكليزية التي قدمها المحامي باسم الفتاة الى المحكمة ليتأكد القراء صحة كل ما ذكرناه فيما مضى

خلاصة الاصل الانكليزي بين اليزا ب . فيلبس مدعية
وجامس ب . فيلبس مدعى عليه

تعرض مقدمته ما يأتي

اولاً . انها حتى ٤ (دیسمبر) كانون الاول سنة ١٨٩٦ بصفة وارثة لاليزا فيلبس المتوفاة وفيوب فيلبس متوفاة ووليم فيلبس متوفى كانت مالكة املاكاً وعقارات كثيرة ذات قيمة مؤلفة من اسهم ورهنيات وحصص ونقود وعقار في انحاء مختلفة من كونتيات اليكاني وجفيرسون وكلار يون و يفر في ولاية بنسلفانيا وفي سومتي من ولاية ايوا وزادت عليها املاك اخرى بطريقة المشترى وهي صاحبة الحق باخذ الاجور والدخل

ثانياً . انه في سنوات عديدة قبل التاريخ المذكور كان جامس فيلبس المدعى عليه وهو شقيقها مستلماً بارادتها جميع مصالحها وادارة املاكها واعطي حق الوكالة ونال مزيد ثقتها فكان يقبض الاجور ويجمع الرسوم وياخذ الفائدة على كل اموالها

ثالثاً . ان المدعى عليه اغراها في ٣٠ نيسان سنة ١٨٩٦ على اعطائه ١٣ الف ريال نقداً لمشترى مزرعة معلومة في مقاطعة بادن من ناحية يفو فيها ٢٢٨٧٦١ فداناً على جميع حقوق الغاز والزيت التابعة لها والبنايات التي تنشأ هناك وكل الاصلاحات وافهمها المدعى عليه ان المزرعة المذكورة تشترى بثمن بخس جداً والمذكور ادعى انه لا يملك مالاً خاصاً يضعه في هذا العمل و برضاها اتفق ان يأخذ نصف حصة في المزرعة المذكورة مع ان مقدمته هي التي دفعت كل ثمن المزرعة وهكذا استصدر المذكور حجة الاملاك المذكورة باسمها واسمه مؤرخة في ٥ اذار سنة ١٨٩٦ ومسجلة رسمياً في ٣٠ نيسان سنة ١٨٩٦ مجلد ١٥٤ صفحة ٣٦٥ ومع ان المدعى عليه زعم انه وضع رهنية باسمها بقيمة ٦٥٠٠ ريال فقد وجدت بعد ذلك ان المذكور انتفاعاً بمزيد ثقتها به لم يفعل ذلك واراد ان يخدعها وان يسلبها حقها فلم يأخذ رهنية باسمها ولا صان حقها من الضياع

رابعاً . ان اليزا ب. فيلبس المتوفاة خلفت عقارات اخرى واسعة وثمينة في الناحية الثالثة عشرة من بتسبرغ موضح عنها بتطويل في السجلات وان المدعى عليه جامس فيلبس وغيره من العائلة الذين وقفوا على الحقائق طالما اوضحوا في السجلات المرقومة ولكنهم كتموا عنها احتيالاً ان تلك الاملاك قد تقسمت و بيعت وانها عند اجراء ذلك كانت قاصرة فوق الرابعة عشرة من عمرها ولها الحق في اختيار وصي فجامس فيلبس بالاتفاق مع وليم فيلبس الذي كان احد وكلاء تركة اليزا فيلبس لم يعلماها هذه الاجراآت وانما توليا النيابة عنها من تلقاء ذاتيهما وحصلا من المحكمة على امر لتعيين وليم فيلبس المذكور وكيلاً عنها . وقد علمت موخراً ان العقارات المذكورة ذات القيمة الكبيرة نقلت بطريق البيع الى جامس فيلبس مقابل قيمة اسمية فقط . ولم تحصل مقدمته على شيء مقابل ذلك كما ان جامس فيلبس المذكور لم يدفع ثمناً لتلك الاملاك وانما قام بتلك الاجراآت قصد الاحتيال على المدعية ومع علمه التام بعدم شرعية هذه الاعمال واعتماداً على ثقتها به وقرابتها له و بدون ان يصرح لها بالاسباب او المقاصد من عمله اغرى المدعية احتيالاً

و بدون مقابل ان تنقل اليه كل حقها وملكها ومنافعها في املاك وعقارات اليزا فيلبس المتوفاة وسجلت تلك الحجة في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٨٩١ وانها وقعت على الحجة المذكورة وسلمتها بناء على ايهام وطلب جامس فيلبس المذكور بدون ان تعلم الغاية والموضوع وبدون مقابل وانما اعتماداً منها على علاقته النسبية وثقتها بجامس المذكور الذي ادعى وجعل نفسه صديقها في ادارة املاكها

خامساً . تعرض مقدمته انه في ٤ كانون الاول سنة ١٨٩٦ بناء على سلوك جامس المذكور وغيره من افراد عائلتها و بناء على تاثير تهديداتهم لها ان يحرموها من حريتها وان يمنعوها من تولي ادارة املاكها فانها مرضت واضطربت وفيما هي تحت هذا التاثير و بينما هي سجينة فعلاً تحت سلطة جامس المذكور وسائر افراد عائلتها ومأموري الخفية والوكلاء الذين استخدمهم جامس واقاربه اذ ذاك ظلموها بل اكرهوها على امضاء اوراق معلومة وتسليمها لجامس المذكور وقد علمت الان انها بتسليم تلك الاوراق قد سلمته كل املاكها وعقاراتها ذات القيمة الكثيرة بدون مقابل ولكنها تجهل محتويات الاوراق المختلفة التي اخذت منها احتيالاً اثناء ضبقها المذكور لانهم لم يقرأوها لها فهي لم تعلم ولا تعلم الان حقيقة معاني ومآل الاوراق والكتابات التي وضعت توقيعها عليها وتجهل عددها وانهم ايضاً حملوها بالاحتيال على وضع توقيعها على حوالة (على بياض) الى بنك فريهولد في بتسبرغ حيث كانت اموالها النقدية وهكذا تمكن جامس المذكور من اخذ مبلغ كبير لذاته هو خاص بمقدمته ومع انها لا تقدر ان تعين القيمة فانها تزيد على ٥ الاف ريال

ثم انهم اضطروها بالتخويف والحجز الى امضاء حجة للمدعى عليه ناقلة اليه كل عقاراتها الكائنة في اليكاني والموجودة باسمها

ثم علمت فيما بعد انها وضعت توقيعها على نقل كل حصتها في رهنية معلومة باسم جاكوب كوفمان الى جامس المذكور وهذا النقل جرى بوجه غير قانوني و بدون مقابل

وان جامس المذكور مع اخرين اتفقوا معه قصد خداعها واختلاس

املاكها وعقاراتها فنقلوا الى اسم جامس المذكور ما خصها من الاسهم والحصص في شركات البنايات والديون واسهم بنك الشعب الاقتصادي وشركة دركوين وشركة مياه موناتكاصيلا وشركة الاسلاك الارضية جميع هذه اخذت منها بدون مقابل وبواسطة الحجر والتهديد والتخويف

سادساً . انها تملك قطعاً من الارض كبيرة وثمينة كائنة في اقسام مختلفة من كونتيات جفيرسون وكلاريون في ولاية بنسلفانيا وهي تجهل مركزها الحقيقي بسبب كتمان ذلك عنها بواسطة جامس فيلبس المذكور وقسم من هذه الاملاك كائن في ما رلتيون وباري ور يتشموند في كلاريون وهي ذات الاملاك التي باعها كول حاكم كلاريون من شارل ديكي في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ وفيها الف فدان وهي ذات الارض التي عاد شارل ديكي فارجعها اليها . ثم انها ايضاً كانت مالكة لقطع من الارض في جفيرسون وكانت قبلاً املاك وليم فيلبس . ومقدمته تملكها بموجب حجة من شارل ديكي المذكور ولكنها لم تسجل ملكيتها وان جامس فيلبس وسواه من المتفقين معه اخذوا منها بطريقة غير شرعية حجج الاراضي المذكورة وايضاً ضمانات واسهم وحصص وحوالات ودفاتر حوالات ومفتاح صندوقها الخصوصي في شركة التامين وكان لديها في الصندوق المذكور جواهر ذات قيمة واشياء خصوصية وهي تجهل مافعل جامس ورفاقه بكل ذلك وانها بسبب هذا الاكراه والتخويف والاحتيال المرتب من قبل جامس فيلبس ونقلهم كل اوراقها واخفائها فهي غير قادرة على تعيين املاكها بزيادة ايضاح وتخصيص لان كل ذلك انتقل الى ملكية جامس فيلبس بالطريقة السابق ذكرها

سابعاً . ان جامس المذكور رفض ان يقدم لها حساباً عن املاكها وادارته لها ومنعها من الاطلاع على دفاترها وحساباتها واوراقها الخصوصية ورفض ان يعيد اليها تلك الاملاك التي اخذت منها بالطرق الاحتيالية الموضحة وابى ان يرجع اليها حصصها واسهمها ورهنياتها وحوالاتها ودراهمها وسائر ما كان تحت ادارته مما هو خاص بها وانه مسئول اعتداء وجوراً

علي املاكها وانه مديون لها بسلوكه في ادارة مصالحها واذا لم يعاد حقها اليها تصاب بخسائر لا تعوّض ولما كانت مقدمته محرومة من طريقة قانونية لاصلاح ما جرى لها فهي ترجو . اولا . منع المدعى عليه في غضون سير هذه الدعوى وما يليها من النظر النهائي عن بيع شيء من املاكها وضماناتها والتصرف فيها او انفاق شيء من مالها وعن كل مداخلة

ثانياً . ان يجبر المدعى عليه على المجاوبة تحت اليمين واستحضار جميع الاموال واوراق الحصص والدفاتر والاوراق وسائر خصوصيات المدعية التي كان قد استولى عليها وكذلك النقود وضمانات الاملاك التي سلمتها اليه وحولها بذاته لذاته وتصرف بها مع تقديم حساب عن كل مدخولها

ثالثاً . ان يقدم حساباً عن جميع المعاملات بينها وبينه في ادارته مصالحها واملاكها ونقودها وان يدفع لها ما يتقرر انه مديون لها به

رابعاً . ان يحكم بالغاء الحجة بينها وبينه المؤرخة في ٤ دسمبر ١٨٩٦ والرهنية بذات التاريخ وسائر الاوراق والاسهم والحصص والاموال التي اخذت منها احتيالا وبدون مقابل . وان يؤمر المذكور بتسليمها لالغائها وان يعيد اليها كل املاكها المذكورة الماخوذة منها بدون مقابل

خامساً . ان تعطى مقدمته جميع التعويض الذي تراه المحكمة الموقرة واجباً

عن المدعية

ا . م وجون د . برون

انا اليزا ب . فيلبس المدعية بعد اخذ اليمين حسب القانون اقول ان كل الحقائق الواردة في العريضة المتقدمة صحيحة بموجب اعتقادي

يوليو سنة ١٨٩٨ اليزاب . فيلبس

وكانت اليصابات تغتنم الفرص وتحتال للخروج من منزل مكوت لمقابلة اسبير بدون بدعوى الذهاب الى خياطة في الجانب الجنوبي من المدينة وهذا ما كتبته اليه

« عزيزي اسبير بدون لا يعلم احد خبر اجتماعي بك عند الخياطة فاكتمه او يمنعوني واخشى انهم يراقبون حركاتي لانني لما كنت ذاهبة يوم السبت رأيت البوليس مونسي تجاهي امامي فو بخته وقلت له — قل لجامس ان يكون

على حذر فانه اذا واصل اضطهادي يؤدي الامر به وبكم الى ما لا تشكرون فانني الان حرة ولدي محام يرى في مصالحي ويحميني ثم اخبرك ايها العزيز ان المحامي برون قد دهش كثيراً لسوء معاملة اخوتي لي وقد قال جامس امس انه لا يتركني « حتى الثم التراب امامه »

وتناولت جرائد بتسبرغ هذه الدعوى فقالت التيمس في ٢٩ يوليو سنة ١٨٩٧ « انها دعوى بين افراد عائلة من اخص العائلات عندنا ولها علاقة بحادثة الحبس الاحتيالي الذي اوردنا تفاصيله في جريدتنا في دسمبر الماضي » وعلى اثر تصدير الدعوى ردجامس بواسطة المحامين عنه ما تتهمه به اخته وبقيت القضية بين ايدي القضاة وسناتي على ذكر حكمهم في محله ووقته وهذه ترجمة تحرير ورد من اليصابات الى خطيبها في هذه المدة

بتسبرغ في ٢٣ يوليو سنة ١٨٩٧

عزيزي اسبيريدون

اخبرتك في تحريري الماضي انني رفعت دعوى على جامس وانه الان في الغرب وقد ورد منه كتاب انه يعود يوم السبت لرد دعواي وارى الاوفق ان لا تأتي الى المدينة هذا الشهر لانني لو اخبرتك تفاصيل مافعلته معي عائلتي لتعجبت . فقد حجزوا حريتي وجعلوني اسيرة اما انا فاغفر لهم ولكن لن اصادقهم فيما بعد اذ لم اعرف حقيقتهم الى الان . اعذرني لاستعمال هذه الورقة الحقيرة الغير النظيفة ولكن هذا كل ما وصلت اليه يدي . وانا لا اعلم كيف ارسل هذا التحرير اليك ولا كيف اوصله الى الصندوق . الى اين وصلت في دعواك ارجوك تاخيرها الى وقت اخر . انني اتمم كتابة هذا التحرير في غرفة الحمام فراراً من مراقبتهم واسلم « للتي تحبك »

الفصل الرابع والعشرون

حكم المحكمة لاليصابات . استرجاع املاكها

بعد مضي مدة من الزمان قضتها اليصابات في شقاء وعذاب مقيمة في

منزل سكوت صدر حكم المحكمة لصالحها في دعواها على اخيها فنشرت جريدة الديسبائش ما نصه « حكم امس في محكمة الدرجة الاولى في دعوى اليصابات فيلبس على جامس فيلبس ان ترد الاملاك اليها وحكمت المحكمة ايضاً ان المدعية فيها الكفاءة التامة لتولي ادارة املاكها ومصالحها ولا تحتاج الى وكيل او وصي » وكانت الاملاك والمصالح قد نقلت من يد اخيها الى وصاية المستر برون المحامي عنها فقررت المحاكم ان يسلم المحامي كل ذلك الى اليصابات ورأت الفتاة انها صارت الان حرة في املاكها ولكن بقي لها لدى المحامي بعض حجج واوراق فخشيت ان تقوم بعقد الزواج علناً فيتاخر بسعي اخوتها عن تسليم ما هو خاص بها و يوجب لها قلقاً فقابلت اسبير بدون واخبرته انها مستعدة لعقد للزواج شرط ان يكون سرياً في الوقت الحاضر وكان اسبير بدون قد اتخذ غرفة حسنة في منزل قوم كرام في جانب ممتاز من المدينة وكان يجتمع فيه بالفتاة من حين الى اخر فلا يدري بها احد من اعدائها

الفصل الخامس والعشرون

الزواج السري · وكيف كان

انفق اسبير بدون واليصابات على عقد الزواج سراً وعينا لذلك ١٧ مارس سنة ١٨٩٨ وان يكون الاكليل في الغرفة التي استاجرها الشاب والتي كانا يجتمعان فيها ففي اليوم المعين خرجت اليصابات من منزل سكوت فقالت مسز سكوت

— الى اين · قالت انا ذاهبة لمشترى بعض الملابس · وظلت سائرة حتى وصلت الى المكان المعين وكان ينتظرها هناك اسبير بدون وجون فيكلينر وهنريت لويز فيكلينر وهما شاهدي الاكليل والكاهن ربوف · واذ ذاك ذهب اسبير بدن الى المحكمة في بتسبرغ لاحضار رخصة لعقد الزواج لان قانون هذه البلاد لا يسمح لاي كاهن ان يعقد الزواج الديني الا بعد ان يرى الرخصة المدنية · ولكن اسبير بدون وجد صعوبة عظيمة

في سبيله لانهُ اراد اخذ الرخصة سرًّا وسأَل كاتب المحكمة ان يكتم امرها عن كتاب الجرائد فحاول الكاتب ان يجيب طلبه ولكن لما ذكر الامر لرئيسه غضب واستاء وقال انه لا يوافق على ذلك اولاً ثم هو لا يعطي اسبير يدون جحا رخصة زواج بالانسة اليصابات فيلبس ذلك لان اخوتها كانوا يعرفونه وقد نبهوه الى حصول ماحصل الان وسالوه منعه فتعل

فعاد اسبير يدون الى عروسه واخبرها بما كان ولم يشأ تاخير الزواج الى يوم اخر فعمد الى طريقة اخرى وسالهم ان ينتظروه قليلاً

ثم اسرع فركب القطار الى بيفركونتي التي تبعد مسافة ٢٠ ميلاً وهناك اخذ من محكمتها رخصة الزواج الرسمية وسأَل الكاتب كتمانها عن اصحاب الجرائد «وشاف خاطره» فاجاب الى ذلك وهكذا عاد الشاب ظافرًا فلما وصل الى الغرفة وقدَّم الرخصة قام الكاهن بعقد الزواج الرسمي بشهادة الشهود كما ترى في صورة ورقة الزواج وهنا هما الشهود والكاهن واذ ذاك عادت اليصابات الى منزل سكوت كانها لم تقم بذلك العمل الخطير ولم تظهر عليها دلائله لانها كتمت الامر بل اخفت خاتم الزواج . وكان في وسعها الانضمام الى زوجها بعد الاكليل ولكن الحكمة اقتضت الصبر اياماً ريثما تنهي كل علاقاتها مع محاميها فتكون ولية امرها

وبعد مضي ٥ ايام تقابلا سرًّا وكانت قد انجزت اشغالها فاتفقا على الاجتماع والسفر واعلان زواجهما في اليوم الاول من شهر افريل وعلى هذا الامل عادت اليصابات الى منزل سكوت

وكانوا اذا ذكروا اسبير يدون على مسمع منها تدافع عنه دفاعاً شريفاً فلم يبالوا كثيراً بميلها اذ كانوا على ثقة من عدم اجتماعها به بل كانوا يظنون ان الشاب قد سافر من المدينة اذ لم يقفوا له على اثر من زمان . ولكن لما اصبح الصباح بعد حفلة الاكليل اذا بالتليفون يدق دقًّا عنيفاً فاسرعت مسز سكوت اليه واذا بوالدها وليم شقيق اليصابات يقول — اين اليصابات — هي هنا — هل انت على يقين من وجودها — كيف لا وهي معي الان — هل بلغك — ماذا — حضر جحا الى المحكمة لاخذ رخصة زواج فلم يتمكن من ذلك فسليها هل جرى شيء .

فطمنت والدها بعدم حدوث شيء . ثم انها لما اجتمعت وزوجها باليصابات حاولا المزء بها فقالت مسز سكوت - مباركة ايتها العزيزة ـ وماذا تباركين - زواجك من جحا فانه ذهب امس للحصول على رخصة للزواج ـ ولكن جحا ليس في المدينة وانت تعلمين انني لا اراه بل كيف اقدر ان اراه وهو غير موجود هنا . فقال سكوت ـ انه جاهل سعى وراء الحصول على الرخصة فلم يفلح وماهذا حال الذين يحبون . قالت ـ لعله طلب رخصة لتزف اليه ابنة اخرى فهو غير مضطر الى الارتباط بي والبنات كثيرات . فقالت مسز سكوت ضاحكة . ـ لماذا لم تخبرينا انك تنوين الزواج امس حتى نهيئ لك طعام العرس بل كيف تزوجت بملابسك العادية واين الاكليل الجميل والثوب الابيض وحرام عليك ان لا اكون معك وقال سكوت ـ ماهذا العرس باليصابات انه عرس فقراء وانت غنية

اما اليصابات فانها كانت تحتمل كل هذه الملاحظات هازلة ضاحكة كان لم يحدث حادث

الفصل السادس والعشرون

ختام المصاعب . اجتماعهما . سفرهما . شهر العسل

لما كان صباح اول نيسان اذا بمسز سكوت قد لبست افضل ملابسها فدخلت على اليصابات وقالت ـ البسي ثيابك يااليصابات وعجلي ـ ولماذا والى اين ؟ ـ اريد الذهاب الى المدينة لمشتري بعض حاجات ـ لاارى بي ميلا الى الخروج اليوم ـ يالك من كسلانة . فانا ارجوك ان تذهبي معي ـ يسوءني ان لا اجيب طلبك ـ ولكن قد هيأت نفسي واكره ان اذهب وحدي ـ اذا انتظرت الى الساعة الرابعة اذهب ـ ولماذا تلك الساعة دون سواها ـ لغرض في نفسي ـ اذا كان لا سبيل الى اقناعك فانني انتظر

****

كان اسبيريدون قد لبس ثياب السفر واوصى شركة عربات مشهورة ان تحضر له افضل عربة من الطبقة العليافي ساعة معلومة فلما كانت الساعة جاءت العربة الجميلة يجرها زوج من جياد الخيل التي لا يراها الناس الالدى الاعيان يسوقها سائق حسن اللباس والترتيب فدخلها اسبيريدون وقد وضع امامه باقة من الزهر ثمنها كثير وجمالها عظيم واوعز الى السائق ان يسير الى عنوان معلوم

****

اما ما جرى في منزل سكوت فان مسز سكوت جاءت الى عمتها بعد الظهر فوجدتها في الغرفة وقد لبست ثيابها وتهيأت للخروج فقالت اليصابات – متى تحضرين – على مهل الان فالنهار طويل – بل يجب ان تحضري حالا او لا انتظرك – قد انتظرتك كل الصباح فانتظريني الان . واطلت من النافذة ضاحكة ثم اجفلت وقالت – من هذا ؟ – واين – انظري هوذا عربة جميلة قادمة واظن ان جدّتي مسز فرنش قادمة لزيارتي . باليتها اختارت غير هذه الساعة فانني قررت الذهاب الى المدينة واكره ان اتاخر . . . ثم امعنت النظر وقالت – قد وقفت العربة امام باب الحديقة ولكن ليست خيولها جياد العربة التي لجدتي فمن هو الزائر ياترى . وكانت اليصابات صامتة كل ذلك الحين لانها علمت ان القادم هو زوجها . ثم ان مسز سكوت رجعت عن النافذة مذعورة وصاحت صيحة الدهشة والغضب ماذا ارى ؟ هذا جيحا قد ترجل من العربة يحمل باقة من الزهر . وهو آتٍ الى الباب ترى ما الذي جاء به الينا . وماذا يريد . وكيف تجاسر ان ياتي . اذ ذاك مدت اليصابات يدها اليسرى الى ابنة اخيها واظهرت خاتم الزواج ولم تتكلم . فلما رأت مسز سكوت الخاتم في يد عمتها ظهرت لها الحقيقة فصاحت – يالك من ذكية . لقد خدعتنا بذكاء . فاسمحي لي وقد قضي الامر ان اهنئك وسيري بنا لنقابله . اما اسبيريدون فانه قرع الجرس وللحال فتحت الخادمة الباب فقال – هل مسز جيحا هنا . فتحيرت الخادمة بماذا تجيب وكانت اليصابات قد اطلعتها على سرها لانها هي التي ادخلتها في الخدمة فاحمر وجه الفتاة وفتحت الباب فدخل اسبيريدون

وقابل اليصابات ومسز سكوت فقالت هذه – قد اتفقتما على خديعتي وتم لكما النجاح · قال اسبير بدون – فعلنا ذلك عن اضطرار وهذه الزهور تشفع بي اقدمها هدية لك فضحكت واعتذرت عما كان قد فرط منها من المعارضة · ثم ان اسبير بدون والصابات ودعاها وركبا العربة وسارا الى المحطة فركبا القطار الى لا نكستون وما جاورها فقضيا ٣ ايام في مدن صغيرة حتى وصلا الى مدينة كليفلاند اوهايو

الفصل السابع والعشرون

اقوال الجرائد الاميركية

جريدة كليفلاند بلاين ديلار في ٨ افريل سنة ١٨٩٨

« نزل اسبير بدون جحا السوري في لوكاندة ستيلمان الفخيمة من هذه المدينة ومعه عروسه التي كانت الآنسة اليصابات فيلبس من اعرق عائلات بتسبرغ في الشرف والمكانة ولها ثروة مابة الف ريال وقد صرحت العروس بذلك لكنها اظهرت كدرها من كثرة اهتمام الجرائد باخبارها وحوادثها الخصوصية وقد نزلا في الخم قسم من نزل ستيلمان والمستر جحا في كل مظاهره كامل في ثوب اسود رسمي وربطة بيضاء يلمع منها حجر كريم واما العروس فكانت في ثوب ازرق وعلى راسها برنيطة ثمينة من الزي الاخير »

وفي تلغراف خصوصي من كليفلاند الى جريدة بتسبرغ بوست

"سئلت مسز جحا اذا كانت قد كتبت الى اخيها القبطان جامس فيلبس المقيم الان في كولورادو فاجابت بحدة « لا لم افعل » والطبقة العالية في المدينة كثيرة التحدث بهذا الحادث

وفي جريدة كليفلاند « وصل الى الخم فندق في هذه المدينة المستر اسبير بدون جحا السوري وعروسه التي هي كريمة اسرة لها المقام الارفع بين الطبقة العليا في بتسبرغ وكان زواجها سراً فلما اشتهر موخراً اصبحت

الطبقة العليا في بطرسبرج بمثل زلزال فجائي »

وفي جريدة بتسبرغ ديسبائش ما خلاصته » فاز اسبير يدون جحا السوري اخيراً فعقد له على الآنسة اليصابات فيلبس من عائلات بتسبرغ الممتازة وهكذا ختم الفصل الاخير من اعظم رواية حبية . وقد سار العاشق المنتصر بعروسه الى حيث لم يعلم احد حتى الان مقرها . ونظراً للحوادث المدهشة المتعددة في هذه الحادثة الغرامية فان انتهائها بالزواج المقدس سيكون بمثابة انفجار قنبلة بين الطبقات العليا من العائلات . وسيدهشهم خبر الزواج اذ كان المفهوم حتى الان بين العموم ان الفتاة تركت الشاب ونزعت هواه من فؤادها . ولكن جحا ضحك عليهم وفاز فقد حسبوه خارج المدينة ولكنه في الحقيقة كان يتمم مقاصده بكتمان وذكاء »الى ان قالت « وهذه الحادثة ذات فصول متعددة ومع ان شقيق زوجته تهدده بالقتل اذا لم ينقطع عنها فان الرجل لم يحفل بالوعيد وخاطر بحياته شان المحب الصادق . ولا غرو فانه يسعى وراء احراز قلب امرأة يحبها وتحبه . وقد صرح مراراً ان الموت افضل من ان يعيش بعيداً عنها . واحرز النصر في جهاده هذا بثبات جاشه وقوة قلبه لا غير فتمكن الان من اخذ عروسه الى حيث لا يلحقها اذى ولا معارض . اما العروس فسمراء ذات جمال جذاب . وغريب ايضاً ان السوري اشقر اللون ازرق العينين ويعد في طبقة من الجمال »

الفصل الثامن والعشرون

في نيو يورك . العروس تعتنق المذهب الارثوذكسي

اكليل ارثوذكسي

لما سكنت الاحوال وراقت الحياة للعروسين وتخلصا من اضطهادات الاعداء سافرا الى نيو يورك وهناك نزلا في فندق والدورف الشهير واقاما نحو الشهرين يزورهما الاصدقاء والاخوان ويتمتعان بمناظر نيو يورك ومحاسنها

ورأت قرينة اسبير بدون الطبقة الفضلى من السور يين ومنزلة زوجها فتحققت انها انضمت الى رجل معتبر بين قوم كرام . وكانت جريدة كوكب اميركا قد نشرت في ٨ افريل سنة ١٨٩٨ الرسالة الآتية

«زفت مؤخرًا الانسة اليصابات فيلبس كريمة احد وجهاء مدينة بتسبرغ الى الشيخ اسبير بدون جحا في ١٧ مارس انما العروس اعلنت لاقربائها عقد الزواج نهار الخميس الماضي . وطالما بذل ذوو قرباها قصارى جهدهم لالقاء النفرة والشقاق بين المتحابين ولكن ذهبت اتعابهم سدى . وقد وافقت بعلها على الرحيل ردحا من الزمن ريثما تكف السنة العذال واللائمين والانسة المذكورة من المتمولات وذات ثروة تبلغ مائة الف ريال . ومع كل العقبات والعراقيل التي اقيمت في سبيلهما لم يثنهما شيء عن نيل الاماني وطالما تهدد اقرباء السيدة اليصابات الشيخ اسبير بدون بالقتل والسجن اماهو فلم يبالِ بوعيدهم . وكانوا كمن يكتب على صفحات الماء . وقد اظهر من ثبات الجنان والشهامة والمروءة والاقدام ما يحمل ابناء الوطن على الافتخار به . وكأن لسان حال العروس يقول

فكن واثقًا مني بحسن مودةٍ * وعش ناعمًا في غبطة غير جازعِ

وانا نهنيء العروسين بهذا القران السعيد ونتمنى لهما الرفاه والبنين ثم ان السيدة اليصابات لما كانت تحبُّ زوجها وتميل الى جنسيته وقد احبت كل ما يحبه فانهما عند وصولهما الى نيو يورك زارها نيافة المطران رفائيل اذ كان يومئذ سيادة الارشمندريت المشهور بادبه وسمو مباديه فطلبت اليصابات من سيادته ان يقبلها في عداد ابناء الكنيسة الارثوذكسية لانها تريد اتباع زوجها في كل امياله فرحب بها سيادته وعمدها في الكنيسة الارثوذكسية ثم عقد لها على زوجها عقدًا ثانيًا على الطريقة الكنيسة الارثوذكسية

وهذا ما ورد في كوكب اميركا في ٣١ مايو سنة ١٨٩٨

« كتبنا سابقًا خلاصة ما حدث لحضرة وطنينا الوجيه الماجد الشيخ اسبير بدون جحا مع اشقاء وانسباء قرينته صاحبة العفاف السيدة اليزا جحا وهي يومئذٍ الانسة اليزا . ب . جحا التي زفت اليه في الكنيسة الاسقفية

الايسكو باليه ونذكر الان عن قدوم العروسين هذه المدينة ليقيما فيها .
ومما يسر العموم ان هذه السيدة الاديبة احبت ان تظهر لزوجها ما له في فؤادها من المحبة والاعتبار فاعتنقت المذهب الارثوذكسي وطلبت من سيادة الاب الفاضل الارشمندريت رفائيل رئيس الكنيسة السورية الارثوذكسية في الولايات المتحدة ان يعمدها و يكللها حسب الطقس الشرقي فقام حضرته بذلك بحضور الشاهدين وهما جناب وطنينا الاديب الخواجا نقولا عبد الله والسيده ماري عقيلة الخواجا سليم هواويني شقيق سيادة الاب المشار اليه »

وقد كتبت اليصابات تحريراً الى عمها الشيخ حنا جحا في لبنان كتبته اولاً باللغة الانكليزية ثم كلفت زوجها ان يترجمه فبعد ان ترجمه وكتبه بخط عربي واضح عمدت هذه السيدة الفاضلة الى نسخه بخط يدها مصوّرة الحروف والكلمات تصويراً وهذا نص الكتاب

سيدي العم الشيخ حنا جحا المحترم وعائلته الموقرة

اشكر الهي الذي هوّن عليَّ تلك الصعوبات التي كانت تتهددني عند ما عزمت ان اجعل لحبكم الطاهر اكبر نصيب في قلبي وذلك قد اتضح لكم منذ عامين تقريباً فالان والحمد لله قد فزت وانتصرتُ بانتقائي عزيزي ولدكم الشيخ اسبير بدون رفيقا امينا لحياتي فعليه ارجوكم ان تتاكدوا انني احافظ دائما على تعزيز تلك العهود المقدسة التي سهلت لي التشرف باعلان وفاري الزائد لحضرتكم وتقبيل ايديكم وان شاء الله سنغتنم اول فرصة لنسافر الى جهتكم اذ لا يهمنا الان شيء الا مشاهدتكم وانما تاخرنا الان عن السفر لغياب اخينا جبرائيل اذ نريد ان يكون السرور جامعاً حد النهاية.
ثم ارجو من الان وصاعداً ان تعاملوني كاحد اولادكم والشكر كل الشكر لحسن مزاياكم التي وجدتها في هذه العائلة الكريمة التي اتشرف باهداء احترامي الفائق لجميع افرادها والرب يديمكم بسلام

صح سيدي . احببت تصوير هذا بيدي (وانا لا خفى اجهل اللغة

العربية تماماً) نقلاً عن الصورة التي ترجمها لي اسبير بدون عن تحريري الذي كنت قد كتبته قصد ارساله بالانكليزية فتسهيلاً لقراءته قد اتخذت هذه الصعوبة بياناً لما لكم عندي من المقام السامي والاحترام

الفصل التاسع والعشرون

رجوعهما الى بتسبرغ ٠ عائلتها

بعد ان قضى اسبير بدون وعروسه شهر العسل في نيويورك عادا الى بتسبرغ واقاما في هناك يتمتعان في عيشتهما السعيدة بما ينسيهما المتاعب والصعوبات السابقة ٠ وقد حاول اخوة اليصابات مضايقتهما بالدعاوي المالية فكان اسبير بدون يقابلهم بنشاط وقوة ويقف في وجوههم وقوف صاحب الحق القادر فلم يفلحوا في واحدة لان اليصابات سلمت كل امورها الى حكمة زوجها وجعلته القيم الاصيل على كل ما تملكه الامر الذي زاده قوة على مقاومة اخوتها وزاد هؤلاء حنقاً وغضباً ٠ وظلت الدعاوي بين الفريقين تشغل المحاكم والمحامين الى سنة ١٩٠٣ واذ ذاك انتهت جميعها على ما احب اسبير بدون وقرينته اذ ضجر اخوتها من المقاومات العنيفة والخسائر العظيمة التي تكبدوها بدون ادراك فائدة

وفي غضون ذلك بيعت املاك اخوتها بالمزاد ولمزيد غضبهم كان اسبير بدون في مقدمة المشترين فاشترى اكثر الاملاك واجودها موقعاً وهذه الاملاك التي اشتراها ما لبثت ان ارتفعت اسعارها ارتفاعاً عظيماً حتى ان جامس لما رأى ان اعمال اسبير بدون قد كللها النجاح المالي الذي كان هو يرجوه له ندم كثيراً واستاء بالاكثر ولكن لم تبق حيلة في يده فاضطر ان يلزم السكون وان يرى اخته سعيدة في زواجها مرتاحة مع زوجها محبوبة مكرمة منه خلافاً لما توهمه وما ادّعاه

ولما ظهر للعموم ان اليصابات اصابت نصيباً مشكوراً في زوجها ندم اخوتها على سوء تصرفهم السابق وخصوصاً وليم الذي اراد مصالحتها واستئناف

علاقات المودة فذهب الى محاميها المستر برون وقال ــ انا نادم كثيراً على ما فعلته مع اختي واخجل ان اقابلها فبصفة كونك المحامي عنها ابلغها بواسطتك اسفي وندمي ٠ ووليم هذا توفي على اثر تلك الحوادث فلما مات ذهبت اليصابات وزوجها الى منزله لتعزية ارملته التي قالت لاليصابات ان زوجي المسكين شعر في اواخر ايامه بالندم العظيم على ما جناه وكان ينوي ان يزوركما حالما يشفى وان يمحو بالعطف الآتي تاثيرات تصرفه السابق ٠ واما روبرت فانه ندم ايضاً ولكنه بقي حانقاً على اسبير بدون وكان يقول ــ لست انسى ذلك المشهد المؤثر الذي يزعجني كل ايام حياتي يوم رأيت اختي جاثية امامي باكية تتوسل اليَّ ان اشفق عليها وانا قاسٍ كالصخر سامحني الله ٠ ثم ان اخوتها ابلغوها انهم يودُّون مقابلتها واستئناف العلاقات النسبية ولكنهم اشترطوا ان لا يكون ذلك مع اسبير بدون بل معها وحدها فاجابتهم هذه المرأة الفاضلة ٠ ــ اذا كان اخوتي لا يريدون زوجي ايضاً فانا لا اريد مودتهم لان لي من اخلاق زوجي وعنايته ومحبته ما يقوم مقام محبتهم ومودتهم

الفصل الثلاثون

المرأة الفاضلة من يجدها ٠ ثمنها يفوق اللآلي

كيف دامت محبة اليصابات لزوجها

مضى على الزواج الذي كان سعيداً عدة سنوات وكل يوم يزيده هناءً وسعادة كأن الله اراد ان يبرهن لاخصام الزوجين ان زواجهما كان مباركاً وان وفاقهما كان مقدوراً

وقد علم القارىء ان اليصابات ذات ثروة طائلة وانها تمكنت من استرجاعها من اخيها وصارت مالكة لها حرة فيها فبعد ان ارتاحت من المتاعب وبدأت تتمتع بالهناء وشعرت بحنان زوجها وتقدر مودته وبعد ان رأت من تعلقه ومعيشته المادية ورزانته ما اكد ثقتها به ارادت ان تؤكد له

وللعموم انها اعطته اثمن ما تملكه المرأة وهو قلبها فبالتالي ارادت ان تعطيه حق التصرف في املاكها واموالها وان يكون الاصيل لا الوكيل فقط فلما فاتحت محاميها بما ارادت وانها تريد نقل كل ثروتها الى اسم زوجها وان تطلق يده في التصرف عارضها المحامي من وجهة قانونية حرصاً على راحتها وراحة زوجها وخوفاً من ان يستأنف اخوتها اضطهادها والقاء المصاعب في طريق زوجها ذلك انها كانت قد اعطت تلك الاموال والاملاك نهائياً بموجب اوراق قانونية لاخيها جامس فاذا كررت الان اعطائها الى زوجها استطاع اخيها ان يزعجها بمحاكمات وقضايا لا فائدة منها الا الخسائر والقلق وقال — في وسعك ان تجعلي زوجك بصفة قانونية وكيلك والمدير لاشغالك فيكون له حق الاصيل وهكذا فعلت وصار اسبير بدون المتصرف في كل ذلك وكان هو الذي يضع توقيعه على الحوالات واوراق المبيع والمشترى على ان الامر لما اتصل باخيها جامس ساءه كثيراً وغضب غضباً عظيماً واضمر الشر لصهره متى استطاع . وحدث اثناء ذلك حصول معاملة مالية بين اسبير بدون نيابة عن زوجته وبين جامس اخيها في امر مبيع املاك في بادن والقيمة المستحقة لاليصابات كائنة في حوزة جامس فارسل اليها العلم بها وانه مستعد لدفع المال لها واغتنم الفرصة لتكدير صهره فكتب بحروف واضحة بحبر ازرق على ظهر العلم ماياتي « اذا لم يكن الامضاء على هذه الحوالة قانونياً صحيحاً لا تدفع القيمة » واراد من هذا الاحتياط ان تضطر اليصابات نفسها الى وضع توقيعها بالذات وليس توقيع زوجها . فلما اطلعت السيدة الفاضلة الامينة على ما كتبه جامس جالت في عروقها دماء الشهامة والانفة من توجيه هذا الاعتداء على حق زوجها المعطى منها اختياراً وللحال استشارت محاميها فاوحى اليها ان تجعل زوجها وكيلا فعلياً اصيلا واذ ذاك يعتبر توقيعه فاسرعت الى اجراء ذلك ولما تم لها ما ارادت عمد اسبير بدون الى ورقة التحويل فوقع اسمه عليها بحروف واضحة هكذا « اسبير بدون تجها » وارسلها الى جامس فلما وصلت الحوالة الى الرجل استشاط غيظاً وازداد حنقاً واقسم ان لا يدفع المال . ثم استشار محاميه في هل هو مضطر قانوناً الى اعتبار توقيع اسبير بدون هذا ودفع القيمة فاجاب المحامي — ذلك واجب

عليك اذ هو زوج اختك ولها حق ترك كل شيء لعهدته فما عليك الان الا ان تدفع المال . فلما راى جامس ان قد سقطت حيلته خبأ كبرياءه وكتم حقده ودفع المال صاغراً مضطراً ومن ذلك الحين ما برح اسبير يدون صاحب الامر والنهي في جميع المصالح يشتري ويبيع ويأخذ ويعطي ويمضي كل الحوالات باسمه الخاص وهكذا اثبتت اليصابات انها امرأة فاضلة وان ثقتها بزوجها لا حدّ لها كما ان حبهما المتبادل لاحدّ له .

****

الفصل الحادي والثلاثون

الصديق . الصداقة الصحيحة . تقديرها

الداخل الى منزل اسبير يدون جحا في سو يسفال يصل اولاً الى غرفة مرتبة هي ما يعبر عنها عندهم باسم «المكتبة» غرفة حسنة الرياش مشرفة على ارض خضراء يتيه النظر في فسحتها وقد ازدانت بالازهار وجدرانها بالرسوم الجميلة . رسوم اقارب واصدقاء . وقد استلفت نظري في هذه الغرفة رسم رجل جليل في اطار جميل وضع في صدر الغرفة في محل الكرامة والاعزاز حتى لا يضيع النظر عنه ولا يفوت كل زائر ان يراه . فعلمت من وجه الرجل انه اميركي وكنت قد رايت رسم والد اليصابات فهذا ليس والدها ومن شكله الاميركي علمت انه ليس رسم والد اسبير يدون ومن عادة الناس ان يضعوا في صدر مجالسهم ومحلات الاكرام من منازلهم رسوم الوالدين اذ ليس اعز منهما ولا افضل . اذن من هو هذا الرجل الذي جعله اسبير يدون وامرأته في مكانة الابوين . ثم قيل لي انه المرحوم هنري جونز . اذ ذاك علمت من هو . اذ ذاك ادركت منزلته وفهمت كما يفهم القاري السبب الذي من اجله جعل هذا الرجل في هذا المقام من المنزل فقد اتخذ حبه ارفع مقام من فوادي الزوجين . واذ ذاك ادركت ان اسبير يدون وقرينته يقدران الفضل والمعروف والصداقة الصحيحة قدرها فان قاريء هذا الكتاب يعلم ما فعله هنري جونز من الفضل وما ابداه

من المساعدة وكيف انه اخذ بيد الشاب السوري الغريب فكان له اباً واخاً ونصيراً . كان اعظم من كل ذلك . يوم رآه غريباً في ارض غريبة لا معين له تجاه اخصامه الاغنياء الاقوياء يوم بسط اليه يد المعونة واعطاه كل نفوذه العظيم . يوم قال لمحاميه المستر بورت قولا يستحق ان يسطر بماء الذهب . بل قد سطر بحروف من الحمد والتقدير على قلب الشاب السوري اذ قال له « يا مستر بورت سر في دعوى اسبيريدون واذا انفقت عائلة فيلبس ريالا في اضطهاده فانا مفوض اليك ان تنفق عشرة ريالات في سبيل الدفاع عنه » وانت تعلم بعد الاطلاع على حوادث هذه القصة انه لولا مناصرة هذا الرجل الشريف الغني الواسع النفوذ ما استطاع السوري خلاصاً من ايدي اعدائه . فرحم الله رجلاً عرف الفضيلة الكبرى فجرى بموجب وحيها الا وهي فضيلة الاخذ بعون الضعيف المستحق ومساعدة الغريب المظلوم

وقد عرف اسبيريدون جحا فضل هذا الرجل عليه فظل معترفاً بمكارم اخلاقه حريصاً على مودته كل حياته حتى اذ توفي الى رحمة الله منذ حين كان اول من بكى على جثته . واول من اسف على افول بدر فضائله . بل انه كان اول من حمل الزهر على ضريحه ونثر مع الورد دموعاً هي بخار العواطف القلبية . وقد توفقت اثناء زيارتي بتسبرغ الى معرفة نجله الاكبر المستر وليم جونز فرايت منه رجلاً فاضلاً يفتخر بالاسم الشريف الذي خلفه له والده ولما اظهرت شواعر شكري لما فعله والده مع مواطني قال -- ان ابي لم يفعل ذلك مع اسبيريدون الا لانه رآه اهلا لكل مساعدة ولانه شعر حقيقة انه مظلوم . وجحا صديق قديم نقدر صداقته . ووالدتي وانا لا نزال نعجب بما ابداه ولا يزال يبديه مع عائلته من تقدير مساعدة ابي له مما يدلك على حسن ظن ابي به . فان الصداقة لا يبقى تاثيرها على الغالب الا في القلوب الشريفة .

ومما يذكر في هذا المقام انه لما ولد للعروسين ولدهما الثاني سمياه هنري تبركا باسم هذا الرجل الشريف

انتهت الرواية

****



